تأملات في الوصايا العشر التي وردت في أواخر سورة الأنعام

من خلال القرآن والسنة

د . وليد محمد عبد العزيز الحمد
أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية
كلية التربية الأساسية
في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب
دولة الكويت

"بسم الله الرحمن الرحيم"

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾

سورة الأنعام

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله ، وأيده بالمعجزات ، ففتح الله به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا ، ثم قبضه الله إليه راضيا مرضيا ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة وتركنا عل المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك

وبعد

فإن القرآن عصمة لمن اعتصم به، وحرز من النار لمن اتبعه ونور لمن استنار به، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

ثم أمر الله خلقه أن يؤمنوا به، ويعملوا بمحكمة: فيحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويعتبروا بأمثاله، ويقولوا:

(آمنا بِهِ كُلُ مِن عِندَ رَبَنا).

ثم وعدهم على تلاوته والعمل به: النجاة من النار والدخول إلى الجنة ثم ندب خلقه عز وجل إذا هم تلوا كتابه أن يتدبروه ويتفكروا فيه بقلوبهم، وإذا سمعوه من غيرهم: أحسنوا استماعه.ثم وعدهم على ذلك الثواب الجزيل فله الحمد.

ثم أعلم خلقه: أن من تلى القرآن وأراد به متاجرة مولاه الكريم فإنه يربحه الربح الذي لا بعده ربح، ويعرفه بركة المتاجرة في الدنيا والآخرة.

ولا ريب فإن القرآن الكريم أساس العلوم ومنبعها ، ودائرة شمسها ومطلعها ، أودع فيه سبحانه علم كل شيء ، وأبان فيه كل هدي وغي ، فتري كل ذي فن منه يستمد ، وعليه يعتمد ، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ، ويعرف حكم الحلال والحرام ، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه ، وفيه من القصص والأخبار ، ما يذكر أولي الأبصار ، ومن المواعظ

والأمثال ، ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار ، فالشرف كل الشرف لمن صرف همه إليه ، ووقف فكره وعزمه عليه ، والموفق من وفقه الله لتدبره ، واصطفاه للتذكير به وتذكره ، كما قال سبحانه : " أفلا يتدبرون القرآن " (١)

قال محمد بن الحسين " ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة السورة إذا افتتحها: متى أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة، " (٢)

وإنا لنسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من هؤلاء المتدبرين لآياته ، الواقفين على آلائه وإني لا أدعي لنفسي فضلا ولا سبقا في أن أكتب عن الوصايا العشر كما وردت في أواخر سورة الأنعام وإنما هي تأملات ونظرات اسأل الله لها القبول ، وقد رأيت أن يكون عنوان هذا البحث " تأملات في الوصايا العشر التي وردت في أواخر سورة الأنعام في ضوء الكتاب والسنة "

ولم أشأ أن أقتصر على آي القرآن المجيد وإنما قصدت أن يكون بحثي هذا من المنبعين الصافيين والمعينين الرائقين الكتاب والسنة لا سيما في ظل هذه الأيام التي تطاول فيها المنافقون واشرأبت أعناقهم وعلا نباحهم ينادون بالاكتفاء بالقرآن

---

١) سورة النساء الآية : ٨٢ .

٢) أخلاق أهل القرآن للإمام الآجري ٣/١ .ط٢ – دار لقمان ١٩٩٤ م .

وطرح السنة جانبا ، ولا يدري هؤلاء أنهم بذلك يثبتون نبوة سيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم فقد ثبت عنه قوله

" لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ "(١)

ومن هنا تكمن أهمية الكتابة في هذا الموضوع

وقد دفعني إلي التأمل في هذه الآيات الثلاث المتضمنة للوصايا العشر حسن مطلعها في قول الحق سبحانه : "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ "(٢)

فكأنها دعوة إلي التأمل والعلو والارتفاع والتحليق في جو السماء وهى حقا كذلك لمن التزم بها ، وعمل علي تنزيلها علي الحياة العملية بعيدا عن الاكتفاء بالكلام وحده ، وهى كذلك دعوة صريحة إلي ترك الإخلاد إلي الأرض ، والركون إلي متاعها واتباع شهواتها وشبهاتها .

وإذا كانت هذه الآيات في مطلع الدعوة إبان العهد المكي وقد خاطب الله بها الناس جميعا فإنه وفي إبان العهد المدني ، بل في أواخره ، وقد فتح الله خير علي النبي صلي الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم وقد سأل أزواج النبي التوسعة جاء هذا الأمر من الله لرسوله في قوله

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا "(٣)

---

١) سنن أبي داوود – باب في لزوم السنة ٢٠٩/١٢ رقم ٣٩٨٩ . وصححه الألباني في مشكاة المصابيح – باب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٥/١ .

٢) سورة الأنعام من الآية : ١٥١ .

٣) سورة الأحزاب الآيتان : ٢٨– ٢٩ .

وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة رضي الله عنهن جميعا ، وإنه لحري بنا نحن اليوم أن نتعالي علي شهواتنا ونزواتنا ، ونستجيب لأمر الله ونتبع وصاياه المباركة لنحيا حياة طيبة في الدنيا " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان "(١)

يقول الإمام الألوسي

"{ قُلْ تَعَالَوْاْ } أمر له صلى الله عليه وسلم بعد ما ظهر بطلان ما ادعوا أن يبين لهم من المحرمات ما يقتضي الحال بيانه على الأسلوب الحكيم إيذاناً بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات ، وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت فيما تقدم ، و (تعال) أمر من التعالي والأصل فيه أن يقوله من هو في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم واستعمل استعمال المقيد في المطلق مجازاً ، ويحتمل هنا كما قيل أن يكون على الأصل تعريضاً لهم بأنهم في حضيض الجهل ولو سمعوا ما يقال لهم ترقوا إلى ذروة العلم وقمة العز . "(٢)

وقد شاء الله أن يكون هذا البحث في مقدمة وتمهيد وعشرة مباحث وخاتمة

أما **المقدمة** فقد جاء فيها ما قد سلف

وأما **التمهيد** : ففيه

١– علاقة هذه الآيات بما قبلها

٢– تعريف الوصية في اللغة والفقه

٣– علة ترتيب الوصايا بهذه الصورة

وأما **المبحث الأول** فهو بعنوان: الوصية بعدم الشرك بالله

وأما **المبحث الثاني** فهو بعنوان : الوصية بالإحسان إلي الوالدين

وأما **المبحث الثالث** فهو بعنوان : الوصية بعدم قتل الأولاد

---

١) سورة العنكبوت من الآية : ٦٤ .

٢) تفسير الألوسي ٦٨/٦ – سورة الأنعام .

وأما **المبحث الرابع** فهو بعنوان : الوصية النهى عن الفواحش الظاهرة والباطنة

وأما **المبحث الخامس** فهو بعنوان : الوصية النهى عن قتل النفس إلا بالحق

وأما **المبحث السادس** فهو بعنوان : الوصية بعدم أكل مال اليتيم ظلما

وأما **المبحث السابع** فهو بعنوان : الوصية بإيفاء الكيل والميزان

وأما **المبحث الثامن** فهو بعنوان : الوصية بالعدل في القول

وأما **المبحث التاسع** فهو بعنوان : الوصية بالوفاء بالعهد

وأما **المبحث العاشر** فهو بعنوان : الوصية باتباع الصراط المستقيم

وقد **ختمت** البحث بأهم النتائج ثم ثبت بأهم مراجع البحث

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل

التمهيد

أولا : علاقة هذه الآيات بما قبلها :

يقول سبحانه "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

إن من دلائل إعجاز القرآن وأنه " تنزيل من رب العالمين " (١)

حسن الانتقال من موطن إلي آخر دون أن تشعر بفجوة ولا بنبوة ، ثم التعانق البديع والارتباط الوثيق بين الآيات بعضها ببعض.

والآيات الثلاث التي معنا جاءت عقيب حديث القرآن عن فئام من الناس تعدوا حدودهم فأحلوا وحرموا بأهوائهم بغير سلطان عندهم ، إنما هي أهواء شخصية متذرعة بتخرصات وتكهنات لا تغني عن الحق شيئا

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل راح المشركون يستشهدون النبي صلي الله عليه وسلم علي صحة ما ذهبوا إليه قال سبحانه موضحا هذا المشهد :

" قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

---

١) سورة الحاقة الآية :٤٣ .

ثم كانت الدعوة إلي الإنصات والاستماع إلي وصايا رب العالمين التي لا تخضع للهوى ولا للمصالح وتنزه سبحانه عن الهوي وعما لا يليق به كما قال سبحانه

"وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ " (١)

يقول الفخر الرازي رحمه الله :

"اعلم أنه تعالى لما بين فساد ما يقول الكفار أن الله حرم علينا كذا وكذا ، أردفه تعالى ببيان الأشياء التي حرمها عليهم ، وهي الأشياء المذكورة في هذه الآية " (٢)

ثانيا : تعريف الوصية في اللغة والفقه

أولا في اللغة : جاء في مختار الصحاح :

"و ص ى أوصى له بشيءٍ وأَوْصى إليه جَعَله وَصِيَّهُ والاسم الوِّصَايَة بفتح الواو وكسرها. وأَوْصَاهُ ووَصَّاه تَوْصِيَةً بمعنى والاسم الوَصَاة. وتَواصَى القَوْمُ أوْصى بعضهم بَعْضاً.وفي الحديث(اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً فإنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ). "(٣)

وزاد صاحب الصحاح في اللغة فقال "أَوْصَيْتُ له بشيء، وأَوْصَيْتُ إليه، إذا جعلته وَصِيَّكَ. والاسم الوِصايَةُ والوَصايَةُ. وأَوْصَيْتُهُ ووَصَّيْتُهُ أيضاً تَوْصِيَة بمعنًى. ووَصَيْتُ الشيءَ بكذا، إذا وصَلْتَهُ وأرضٌ واصِيَةٌ: متَّصلة النبات. وقد وَصَت الأرضُ، إذا اتَّصل نبتها.وربَّما قالوا:تَواصى النبتُ، إذا اتَّصل. وهو نبتٌ واصٍ."(٤)

---

١) سورة المؤمنون الآية : ٧١

٢) التفسير الكبير ١٥/٧ – سورة الأنعام .

٣) مختار الصحاح ٣٤٣/١ – باب وصى

٤) الصحاح في اللغة ٢٨٢/٢ – باب وصى .

ومن المعني اللغوي يتضح مدي العطف والرفق من الوصي علي الموصي يظهر ذلك في دلالة الوصية علي معني الصلة ودلالة التواصي علي معني التواصل

وإنك لتلمح ذلك في وصية الوالد باتباع تعاليم معينة ، وهو ما قصه القرآن الكريم في وصايا الحكيم لقمان لابنه وهو يعظه

ولله المثل الأعلى فإن هذه الوصايا من الله تعالي بمثابة النصح والإرشاد لبني آدم حتى لا تستهويهم الشياطين أو تتفرق بهم السبل لتتجلي صفاته العلي ، وتظهر أسماؤه الحسني ومنها الرحمن الرحيم الودود الرءوف وغير ذلك

وقد قال صلي الله عليه وسلم " لله أرحم بعباده من هذه بولدها " (١)

وأما تعريف الوصية في الفقه فقد جاء في فتح القدير

"ثُمَّ إنَّ الْوَصِيَّةَ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ هُوَ التَّوْصِيَةُ ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى { حِينَ الْوَصِيَّةِ } ثُمَّ سَمَّى الْمُوصَى بِهِ وَصِيَّةً ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا }،وفي الشَّرِيعَة : تَمْلِيكٌ مُضَافٌ إلَى مَا بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّعِ عَيْنًا كَانَ أَوْ مَنْفَعَةً ، ، وَالْوَصِيَّةُ بِهَذَا الْمَعْنَى هِيَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ غَيْرُ وَاجِبَةٍ ، وَأَنَّ الْقِيَاسَ يَأْبَى جَوَازَهَا ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ بَعْضُ الْمَسَائِلِ مِثْلُ مَسْأَلَةِ الْوَصِيَّةِ بِحُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُقُوقِ الْعِبَادِ . (٢)

ثالثا علة ترتيب الوصايا بهذه الصورة

"إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئاً . في موضع من السياق القرآني يحدد المعنيّ بالشرك الذي تبدأ بالنهي عنه جميع الوصايا!

إنها القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط ، وبالقيم الأساسية التي

---

١) البخاري في كتاب الأدب – باب رحمة الولد .. ٤٠٥/١٨ رقم ٥٥٤٠ .

٢) فتح القدير – كتاب ٢٤ /٤٩٥ .

تحكم الحياة البشرية . . فلا تظل نهباً لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التي تتراوح مع الشهوات والنزوات " [١]

ثم جاءت الوصايا بالوالدين والأولاد لتقوية روابط الأسرة وربطها بالله الخالق الرازق ذي القوة المتين

"إنها رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة – تقوم بعد الرابطة في الله ووحدة الاتجاه – ولقد علم الله – سبحانه – أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء . فأوصى الأبناء بالآباء ، وأوصى الآباء بالأبناء؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة . وقال لهم : إنه هو الذي يكفل لهم الرزق ، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين في كبرهما؛ ولا تجاه الأولاد في ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعاً . .

{ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن } . .

ولما وصاهم الله بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها – كما يقوم عليها المجتمع كله – وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها . . فهو نهي مرتبط تماماً بالوصية السابقة عليها . . وبالوصية الأولى التي تقوم عليها كافة الوصايا .

إنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن

إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش : كل ما أفحش – أي تجاوز الحد – وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في

١) في ظلال القرآن ١٧١/٣ – سورة الأنعام .

هذا الموضع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . ولا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص { الفواحش } هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن "[١] .

يقول صاحب التحرير والتنوير

"وقد انقسمت الأحكام التي تضمّنتها هذه الجمل المتعاطفة في الآيات الثّلاث المفتتحة بقوله : { قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم } إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : أحكام بها إصلاح الحالة الاجتماعية العامَّة بين النّاس وهو ما افتتح بقوله : { ألاّ تشركوا به شيئاً } .

الثّاني : ما به حفظ نظام تعامل النّاس بعضِهم مع بعض وهو المفتتح بقوله: { ولا تَقربوا مال اليتيم } .

الثّالث : أصل كلي جامع لجميع الهدى وهو اتّباع طريق الإسلام والتّحرّز من الخروج عنه إلى سبل الضّلال وهو المفتتح بقوله : { وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه } وقد ذيّل كلّ قسم من هذه الأقسام بالوصاية به بقوله : { ذلكم وصاكم به } ثلاث مرّات" [٢]

١) في ظلال القرآن ١٧١/٣ – سورة الأنعام .

٢) التحرير والتنوير ١٨٥/٥ – سورة الأنعام .

المبحث الأول

النهى عن الإشراك بالله تعالى

وهذه أول الوصايا التي اشتملت عليها هذه الآيات المباركات : التحذير من الإشراك بالله تعالى " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا".

والشرك مصدر شركت الرجل في ماله :أشركه شركا ، وشارك فلان فلانا شرك عنان أو شرك مفاوضه وشريك الرجل ومشاركه سواء

والإشراك بالله جل وعز مصدر أشرك إشراكا وهو أن يدعوا لله شريكا تبارك ربنا وتعالى والشرك : الطريق الدقيق ينشعب عن جادة .. (1)

والشرك مذموم بعمومه ولعل ذلك ما وضحه القرآن وهو يقبح صورة الشرك بالله في العقول حيث يقول سبحانه :"ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ..." (2)

ففي هذه الآية "يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع؛ ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح . .

{ هل يستويان مثلاً؟ } . .

إنهما لا يستويان . فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذي يخضع لسادة

---

1) انظر جمهرة اللغة – باب ر– ش – م ١/ ٤٠٠ .

2) سورة الزمر الآية :٢٩ .

متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي الجميع!

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال " (1)

والشرك ضربان :

أحدهما: الشرك الأكبر وهو شرك الاعتقاد وهذا الذي ينافي التوحيد لله رب العالمين وهو الذي عليه مدار قبول الأعمال أو ردها "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا. " (2)

وهذا يشير إلى أن المشرك مهما أتى من أعمال طيبة هي كالجبال في نظره عظما إلا أنها ليست بشيء عند الله تعالى لأنها افتقرت إلى الأصل الأول والركن الأساسي لقبولها وهو توحيد الله عز وجل فهذه الأعمال وأصحابها مالها وزن عند الله سبحانه وتعالى ولهذا قال سبحانه في معرض الحديث عن أولئك الذين انساقوا وراء معبودات زائفة وهم يعتقدون قداستها :" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا" (3)

ولعل هذا ما يشير إليه الحديث الصحيح ففي مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ لَا يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (4)

---

1) في ظلال القرآن للأستاذ /سيد قطب٦/ ٢٣١ .

2) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

3) سورة الكهف الآيات ١٠٣ – ١٠٥ .

4) مسلم فى كتاب الإيمان – باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل ٤٨٤/١ رقم الحديث ٣١٥ .

وبجرم الشرك وقبحه فان الله تعالى سماه ظلما فقال سبحانه فى ثنايا الحديث عن وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه " **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** "(١)

يقول صاحب مفاتيح الغيب " ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ } في عبادة الخسيس أو لأنه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع في موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطي عمراً يكون ظلماً من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق ، وأما الإشراك فوضع العبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلا " (٢)

ولهذا خص الله المؤمنين به إيمانا صادقا صحيحا لا تشوبه شائبة نعمة هي من أجل النعم وأغلاها في الدنيا والآخرة ألا وهى نعمة الأمن والأمان

أمن في الدنيا فلا يخشون الفوت فترى قلوبهم مطمئنة بذكر الله ونفوسهم هادئة ساكنة لأنهم في معيته سبحانه وأمن في الآخرة حين يفزع الناس الفزع الأكبر قال سبحانه "**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**" (٣)

وفى صحيح مسلم عن علقمة بن عبد الله قال "لَمَّا نَزَلَتْ

---

١) سورة لقمان الآية ١٣ .

٢) مفاتيح الغيب للرازى ٢٦٨/١٢ تفسير سورة لقمان .

٣) سورة الأنعام الآية ٨٢ .

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ }
شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ{ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }(١)

وطالما حذر الله سبحانه من مغبة الإشراك به وأن هذا الجرم مما لا يغفره بينما قد يغفر ما دونه لمن يشاء من عباده فقال سبحانه "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**" (٢)

وفى ذات الصورة يؤكد ربنا هذا المعنى ويكرره فيقول " **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**" (٣)

وأنت بعد خبير بفوائد التكرار في القرآن الكريم إنه يستحث العقل الفينة بعد الأخرى ويشحذ التفكير الخامل ويستنهض العقل من سباته عله يفيق فإن لم يجد معه الإخبار الأول قد ينبهه الثاني وكما قال الشاعر

كرر وردد ذكرهم في مسمعي   فهم الشفا لتألمي وتوجعي

ويوضح هذا المعنى في الأذهان حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل وعلا كما في مسند أحمد عن أبي ذر قال "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ عَمِلْتَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطَايَا وَلَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَكَ قُرَابَ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً "(٤)

---

١) مسلم كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه ٣١١/١ رقم ١٧٨ .

٢) سورة النساء الآية :٤٨ .

٣) سورة النساء الآية :١١٦

٤) مسند أحمد باب حديث أبي ذر وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة – أول الكتاب ١٢٣/٢ رقم ٥٨١

ويدخل في هذا الضرب من الشرك – أعني شرك الاعتقاد – شرك التشريع ذلك أن الله سبحانه هو الخالق المتفرد بالخلق كما قال سبحانه

"الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ " (١)

"صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ " (٢)

وخالق الشيء وصانعه أعلم بما يفسده وما يصلحه كما قال سبحانه

"أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيفُ الخبيرُ " (٣)

فإذا تقرر هذا في الأذهان بان لك أن لله الخلق والأمر كما قال سبحانه

" أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ "(٤)

ودل ذلك على أن ترك شرعة الله ومنهجه إلى شرعة غيره ومنهجه هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفر الله لصاحبه إذا لقيه به كما قال سبحانه

"أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ " (٥)

ولعل من المناسب في هذا المقام أن نذكر أن أول هذه الوصايا وهى الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والشركاء ونبذ الشرك بكل أنواعه وصوره ومظاهره

هذه الوصية الخالدة قد أعقبت الحديث عن حال هؤلاء العرب المشركين الذين اتخذوا الأصنام شركاء كما اتخذوها شفعاء ونسبوا إليها التحريم والحل زورا وبهتانا فهي لا تملك ضرا ولا نفعا وإنما هو الهوى المفضي بصاحبه إلى النار وقد نهى الله سبحانه نبيه والمؤمنين أن يسلكوا مسلك هؤلاء الضالين المشركين قال سبحانه

---

١) سورة السجدة الآية :٧ .

٢) سورة النمل الآية : ٨٨ .

٣) سورة الملك الآية :١٤ .

٤) سورة الأعراف الآية :٥٤ .

٥) سورة الشورى الآية :٢١ .

"قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ " (١)

ولهذا فقد وصف الله سبحانه إيمان فئة من الناس زعما لما أرادوا أن يتحاكموا إلى منهج غير منهج الله رب العالمين فقال سبحانه

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطاغوت وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا " (٢)

إن الطاعة في تحليل الحرام وتحريم الحلال جزء من العبادة وبالتالي فهذا قدح فى التوحيد بل وهدم له من الأساس وقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى لأمته حتى لا يأتي بعد ذلك متشدق ببهتان فيقول على الله ورسوله بغير علم ولا سلطان

وقد جاء عدي بن حاتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد دان بالنصرانية قبل الإسلام فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون } (٣) (٢)قال يا رسول الله إنهم لم يعبدوهم فقال بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تفسيرا لهذه الآية أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه " (٤)

---

١) سورة الأنعام الآية :١٥٠ .

٢) سورة النساء الآية :٦٠ .

٣) سورة التوبة الآية : ٣١ .

٤) انظر غاية المرام للشيخ الألباني – أول الكتاب ١٩/١ رقم ٦ .

أثر عقيدة التوحيد في صلاح الفرد والمجتمع

تعتبر حاجة العباد إلى التوحيد كحاجتهم إلى الله تعالى في الخلق والرزق واستمرارية الحياة بل أعظم من ذلك " لأن أقصى ما يترتب عليه فقدان الطعام والشراب والحياة موت الأبدان بينما يترتب على عدم التوحيد موت الأرواح واندثار الأديان والشقاء في الدنيا والآخرة ودخول النار والحرمان من الجنة " (١)

ذلك لأن التوحيد المقصود هنا ليس مجرد الاعتقاد بوحدانية الله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالا فحسب بل يتبع هذا الاعتقاد حقه من التسليم المطلق لله والخضوع والطاعة والانقياد التام وعدم صرف شيء من العبادات القولية والفعلية والقلبية لغيره تعالى

لأن التوحيد ليس كلمة تقال باللسان دون أن تستقر فى القلب ويظهر آثارها على الإنسان في منهج كامل للحياة يبدأ من الاعتقاد الصحيح وينتهي بتنظيم شامل لحياة الفرد والمجتمع

أثر عقيدة التوحيد في صلاح الفرد

إن الفرد في ظل عقيدة التوحيد يحيى حياة طيبة هادئة خالية من الطلاسم والعقد ذلك أن عقيدة التوحيد عقيدة بسيطة سهلة تعتمد على العقل السليم فهى توافقه ولا تصطدم معه وتنسجم أيضا مع الفطر المستقيمة فلا تناقض فيها ولا اضطراب ولا أسرار فيها ولا كهنوت

ومن ثم فإن التوحيد يحرر الفرد من عبودية العباد والخضوع لغير الله ويسمو به ويرتفع للخضوع لله الواحد ويمنحه الاستقلال والحرية ويطلق قواه من سلطان غير الله تعالى وأما المشرك فعنده استعداد تام للخضوع للقوى الطبيعية سواء كانت هذه القوى حجرا أو شجرا أو قبرا وما إلى ذلك والموحد لا يتعلق

---

١) إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٣٠ .

قلبه بهذه الأشياء مطلقا لعلمه بقوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ" (١)

كما أن التوحيد يهب الفرد قوة في مجابهة المحتالين والدجالين الذين يستغلون ضعاف العقيدة فيزعمون أن لهم حق الولاية عليهم وأنهم يتحكمون في مصايرهم لأنهم يقومون بدور الوساطة والشفاعة لأن الفرد الموحد يعلم يقينا قوله تعالى

" مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ " (٢)

كما أن الموحد لا تتوزع طاقته ولا تتبدد جهوده ومشاعره بين آلهة شتى فقد وصف الله المشرك بقوله :

" وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ " (٣)

وقد ضرب الله سبحانه المثل للموحد والمشرك وبين كيف أن الموحد يعيش بمنجى مما يعانيه المشرك من تمزق داخلي وعدم استقرار وطمأنينة لدينونته لآلهة متعددة لأنه لن يبلغ رضاهم جميعا فقال سبحانه

" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " (٤)

والتوحيد يضيء جوانب النفس ويطهرها وينقي الضمير ويحييه ويرقق القلب والروح بينما الشرك حجب كثيفة علي القلب والروح وما يصدر عن القلبين

---

١) سورة الحج الآية : ٧٣ .

٢) سورة يونس من الآية : ٣ .

٣) سورة الحج الآية :٣١ .

٤) سورة الزمر الآية : ٢٩ .

الموحد والمشرك كالذي يصدر عن الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة وفى ذلك يقول سبحانه

" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ " (١) قال ابن القيم رحمه الله شبه الله سبحانه شجرة التوحيد فى القلب كالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوا ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة وفى كل وقت بحسب ثباتها وإخلاصه فيها " (٢)

كما أن التوحيد هو الأساس في نجاة العبد من النار في الآخرة وتحقيق الأمن له من الفزع الأكبر كما قال سبحانه " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ "(٣)

ولفظ الظلم في هذه الآية يعنى الشرك (٤)

والمشرك مهما يأت من أعمال هي في نظر الرائي كالجبال عظما وكالرمال عددا فإنها لا تنفعه بشيء لأن الأساس منهدم عنده ولهذا قال الله تعالى

"مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ " (٥)

---

١) سورة إبراهيم الآيتان : ٢٤- ٢٥

٢) أعلام الموقعين لابن القيم ١/١٧١ .

٣) سورة الأنعام الآية : ٨٢ .

٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٧ .

٥) سورة إبراهيم الآية :١٨ .

٢- اثر عقيدة التوحيد في صلاح المجتمع :

إن التوحيد الصحيح لا حد لتأثيره في رقى الحياة البشرية في كل جوانبها ولذلك استحق إن يرسل الله تعالى من أجله الرسل عليهم السلام وأن يبذلوا في سبيله كل جهدهم ويتحملوا من أجله كل الابتلاءات والآلام وما ذلك لأن الله سبحانه في حاجة إلى توحيد العباد إياه ولكن لأن استقامة الحياة وصلاح المجتمع متوقف علي التوحيد فالمجتمع لا صلاح له ولا استقامة إلا على أساس التوحيد المطلق لله رب العالمين والعبودية الحقة لله تعالى بإقامة منهجه واقعا عمليا في الحياة فلا يعبد سواه في صغير ولا كبير ذلك لأن الأرض عندما يعبد فيها غير الله تعالى تفسد الحياة على ظاهرها ويعمها البلاء والشر ويسود فيها الظلم والفجور ولهذا فإن فرعون لما استعبد الناس في زمانه عم الفساد في الأرض ولهذا فقد وصف الله فرعون بقوله " إنه كان من المفسدين " (١)

ثم انتقم منه وجعله عبرة لمن بعده فقال سبحانه " فانظر كيف كان عاقبة المفسدين "(٢)

والتوحيد يدفع بالمجتمع في مضمار التقدم والرقى لأنه ينفى عن المجتمع مساوىء الشرك الكثيرة ولأنه ينقى الأذهان من الأوهام والخرافات والأساطير التي تفتك بالمجتمع وتهدم كيانه وتضعفه وتجعله في اضطراب مستمر وتقف حاجزا دون رقيه وازدهاره (٣)

إن عقيدة التوحيد بما اختصت به من ميزات إذا ما استقرت في قلب العبد فإنها تهبه حياة طيبة وقدرة على العطاء والنفع بما يكون فيه صلاحه وصلاح مجتمعه

---

١) سورة القصص من الآية : ٤ .

٢) سورة النمل الآية : ١٤ .

٣) عقيدة التوحيد في القرآن د/ محمد ملكاوي ص ١٣١ .

كله أما إذا خلى القلب من هذه العقيدة فإن صاحبه ميت في إهاب حي ولا يصدر عنه إلا كل خبيث ولا يجني منه المجتمع إلا كل شر كما قال سبحانه

" وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ " (١)

ثانيهما : الشرك الأصغر :

وهو شرك الأعمال الموسوم بالرياء والذي ينافى الإخلاص لله رب العالمين فى العبادة وقصد غير وجه الله تعالى بالعمل وهو محبط للأعمال كلها ذلك لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم

قال سبحانه

"فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ " (٢)

وقال سبحانه

"وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ "(٣)

(كما حدد سبحانه ضوابط قبول العمل في قوله تعالى

" فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (٤)

– يقول الحافظ ابن كثير

" فمن كان يرجو لقاء ربه " أي ثوابه وجزاءه الصالح

---

١) سورة الأعراف الآية : ٥٨ .

٢) سورة الزمر الآيتان :٢،٣ .

٣) سورة البينة الآية :٥ .

٤) سورة الكهف الآية :١١٠ .

" فليعمل عملا صالحاً " أي ما كان موافقا لشرع الله

" ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " وهو الذي يراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له

وهذان ركنا العمل المتقبل ، لابد أن يكون خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم " (١)

وقد جاء الوعيد شديداً على كل من يتعلم شيئا من علوم الدين والتي هي في الأصل قربي إلى الله – ثم يعدل عن كونها قربي إلى حظوظ النفس وشهواتها ومن كالداعية – الذي يدعو الناس إلى الله والدار الآخرة في العلم عن الله والخبر بأمور الدين ، فإن هو لم يجاهد نفسه الأمارة بالسوء ، ويكابد هواه الذي يزين له استمالة وجوه الناس ، ومجالسة الكبراء وغير ذلك ، فهو حتما واقع تحت طائلة عذاب الله تعالى

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من تعلم علما يبتغي به وجه الله – عز وجل – لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة يعني ريحها " (٢)

فإن كان هذا الوعيد في حق من يريد بدعوته وجهده وعلمه عرضا من الدنيا فهل ينفع الداعية أن يجمع بين الأمرين أقصد بين عرض الدنيا وعرض الآخرة كأن يطلب بعمله هذا وجه الله والدار الآخرة من جهة وثناء الناس عليه والتفافهم حوله من جهة أخرى ؟

---

١) تفسير ابن كثير٣/١٤٦ .

٢) رواه أبو داود في كتاب العلم – باب في طلب العلم لغير الله – ٢/٣٤٦ رقم ٣٦٦٤ وصححه الحاكم على شرط الشيخين في المستدرك ١/١٦٠ رقم ٢٨٨ من حديث أبي هريرة ووافقه الذهبي

والحق أن هذا داخل في المشاركة في الغاية والقصد ، وقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – قال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول:

" قال الله تعالى " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " (١)

أي لم ينظر الله – تعالى – إليه كناية عن إحباط ثوابه وحرمانه من أجره لما اقترفه من ترك الإخلاص لله وحده في أعماله . والأحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة

١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥ عن أبي هريرة .

المبحث الثاني

الإحسان إلى الوالدين

وتلك هي ثانية الوصايا في هذه المنظومة المباركة

" وبالوالدين إحسانا ....

وياله من تشريف وتكريم وهو أن يوحى رب العالمين بالإحسان إلى الوالدين بعد الوصاة بتوحيده سبحانه وإنك لتلمح ذلك جليا واضحا فى مواطن كثيرة من القرآن الكريم فذا موضع وفى الإسراء مثله حيث يقول سبحانه

"وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"(١)

وفى لقمان مثلهما حيث يقول سبحانه "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (٢)

وفى النساء مثله حيث يقول سبحانه

"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا " (٣)

وأما اقتران الوصايا بالوالدين بالوصية بتوحيد الله تعالى فيقول الإمام الألوسى رحمه الله "

١) سورة الإسراء الآية :٢٣،٢٤ .

٢) سورة لقمان الآيات ١٣ – ١٥ .

٣) سورة النساء الآية :٣٦ .

وثنى الله تعالى بهذا التكليف لأن نعمة الوالدين أعظم النعم على العبد بعد نعمة الله تعالى لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله عز وجل والمؤثر في الظاهر هو الأبوان " [١].

وهذا يشير إلى مدى عظيم حق الوالدين ووجوب برهما ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما إن الله قرن ثلاثا بثلاث فلا يقبل واحدة دون الأخرى فقال سبحانه "

"أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ........ " [٢]

وقالَ سبحانه " وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ " [٣]

وقال سبحانه " أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ " [٤]

فمن شكر الله ولم يَشكر الوَالدين لَم يتقبل الله منه

وانظر ثم اعجب لهذا التكرار الجميل في الوصية بالوالدين فمرة يقول سبحانه " وبالوالدين إحسانا "

في أربعة مواضع من آى الذكر الحكيم [٥]

ومرة يقول سبحانه " ووصينا الإنسان بوالديه حسنا [٦]

وإذا عرفت أن الإحسان في العبادة هو الغاية والنهاية وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

---

١) تفسير الألوسى ٦٨/٦ .

٢) سورة النساء الآية :٥٩ .

٣) سورة البقرة الآية :٤٣ .

٤) سورة لقمان الآية :١٤ .

٥) الموضع الأول في الأنعام آية ١٥١ ، والموضع الثاني فى النساء آية ٥٩ ، والموضع الثالث في الإسراء آية ٢٣ .، والموضع الرابع في الأحقاف آية ١٥ .

٦) سورة العنكبوت الآية :٧ .

فإن المناسبة هنا واضحة جلية حيث الأمر بالإحسان إلى الوالدين يعنى بلوغ المنتهى في البر والعطف والرحمة بهما يقول العلامة الفخر الرازي رحمه الله في صدد تفسيره لآيات الإسراء

"في الآية مسائل :

المسألة الأولى : اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه :

الوجه الأول : أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده ، والسبب الظاهري هو الأبوان ، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي ، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري .

الوجه الثاني : أن الموجود إما قديم وإما محدث ، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية ، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام : « التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله » [١]

---

١) مفاتيح الغيب ١٠/ ٣١، ٣٢ .

وهنا لفتة مفيدة وهى أن الله يوصى الأبناء بالأبوين ويكرر ذلك مرات عديدة بينما لم يوصِ الأبوين بالأبناء اللهم إلا فيما يتعلق بالمواريث في قوله سبحانه " يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ " (١)

ذلك لأن تعهد الأبوين بالذرية أمر فطرى جبلي مركوز في العقول السليمة والفطر المستقيمة بل إن الحيوانات المفترسة وغيرها لترفع حافرها عن وليدها أن تؤذيه وتتعب وتنصب في البحث عن قوت صغارها والدفاع عنهم بكل وسيلة مما هو مشاهد للعيان ولا يحتاج إلى مزيد بيان فما بالنا بالإنسان الذي فضله ربه وكرمه على كثير ممن خلق تفضيلا إنه يحب بقاء نوعه واستمرار نسله وحمل اسمه فهو لذلك ينظر إلى هذا الوليد نظرة ملؤها الحب والحنان والرحمة والمودة والتفاؤل بالمستقبل ومن هنا تأتى الرعاية والحدب على الذرية .

وفى زخم الحياة والانشغال بالذرية والاهتمام بالمستقبل الآتى من بعيد يمشى حبوا في خطاه كالطفل الصغير ينسى الأبناء الأبوين أو ينشغلون عنهم بغيرهم بل قد يصل الحال إلى الجفاء بل إلى العقوق وهنا : كان لابد من التذكرة بوصية رب الأرض والسماء التي توصى الأبناء بالأمهات والآباء وفى لمسة حانية وتذكرة هادئة كأنها اليد التي تربت على كتف الابن لينظر خلفه ليرى أمه وأباه جالسين يرمقانه عن كثب وكأنهما يعتبان عليه بعينين دامعتين أوشك نورهما على الأفول ولسان حالهما يقول : هلا جعلتنا مثل هذا الوليد الذي تحمله مقبلا ومدللا فقد كنت عندنا مثله عندك ويزيد، فماذا دهاك حتى لكأنك لا تعرفنا من قريب أو من بعيد؟

وتأمل مليا قوله سبحانه

" إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " (٢)

---

١) سورة النساء الآية :١١ .

٢) سورة الإسراء الآيتان :٢٣ ،٢٤ .

ولفظ عندك هذا يوحى إليك بمضمونه وهو أن الوالدين إنما مكانهما عندك أنت حال الشيخوخة والكبر وليس فى ثمة مكان آخر لأنه لا يليق أدبا ولا شرعا أنه بعد التربية والحب والتعب وغير ذلك يكون جزاء الوالدين منك جزاء سنمار

ألا ترى إلى قول الله تعالى " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ "(١)

إن المدنية الزائفة قد جنت على عقول كثير من أبناء المسلمين فتراه يتذرع بتأويلات فاسدة وأحاييل باطلة من أجل أن يضفى على عمله المشين هالة من الشرعية في كونه قد أدخل الوالدين دار المسنين لا .. إن مكان الوالدين – من بقى منهما – عندك أيها المسلم مع أولادك وزوجك ينعمون بحبك ويطعمون من خيرك وكسبك ويحاطون برعايتك حتى تبلغهما مأمنهما ولا يقتصر برك بهما عند هذا بل وبعد وفاتهما "وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا " (٢)

واذكر يوم كنت أنت عندهما تحت رعايتهما وفى كنفهما لا يقر لهما قرار إلا في راحتك ولا يهدأ لهما بال إلا في صحتك ولا يغمض لهما جفن إلا في نومك وسعادتك

_ساعتها ما كان لك يد تبطش ولا رجل تسعى ولا سن يقطع ولا حتى رزق يجرى ومع ذلك فما ضجروا ولا سخطوا وتمنوا حياتك ولو على حساب حياتهما

اذكر هذا يوم يتبدل الحال عير الحال واعلم أن دوام الحال من المحال فها هما قد سقط سنهما وابيض شعرهما أو تلاشى واحدودب ظهرهما واشتد مرضهما إلى غير ذلك وهنا دورك أيها الابن فلا ضجر ولا صخب ولا عبوس

" إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ " (٣)

---

١) سورة الرحمن الآية :٦٠ .

٢) سورة الإسراء الآية :٢٤ .

٣) سورة الإسراء الآيتان :٢٣ ،٢٤

نعم إنه القول الكريم _ قول العبد الآبق المسكين إذا وقع في يد سيده الفظ الغليظ نعم إنه جناح الذل من الرحمة . إنها معان جياشة تختلج في النفس تخرج في حينها لتضفى على الأبوين أسمى آيات الاحترام والتقدير

_ بر الوالدين يعدل الجهاد في سبيل الله :

أرأيت إلى فضل وثواب الهجرة إلى الله ورسوله ثم إلى فضل الجهاد فى سبيل الله.. إن ذلك يعنى ترك الديار والأوطان و المال والأهل والإخوان ثم الجرح والقتل أو الأسر وفقد النفس ترى ما ثواب وجزاء كل هذا ؟

إنه لا جرم ثواب عظيم فهل دار بمخيلتك أن صحبة الوالدين تعدل كل هذا؟

هذا ما جاءنا من كلام نبينا صلى الله عليه وسلم فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ قَالَ فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ قَالَ نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا قَالَ فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا"(١)

بر الوالدين وسيلة لتفريج الكروب :

أيظن أحد من الناس أنه بمعزل من الشدائد أو بمنأى عن نوازل الدهر أو يظن إنسان أنه بمأمن من صروف الليالي وعاديات الزمن ؟

إن من يتخيل ذلك لا شك أنه إنسان واهم يسبح في خيال

فالإنسان دائما ما يتقلب بين الشدة والرخاء واليسر والعسر وكل هذه الأضداد فدوام الحال من المحال

---

١) مسلم في كتاب البر والصلة والآداب – باب بر الوالدين وأنهما أحق به ..٣٩١/١٢ رقم ٤٦٢٤ .

وإذ قد ثبت ذلك فإن الإسلام يدلنا على الأعمال الصالحات التي تتخذ وسائل لتفريج الكروب ورفع البلايا والرزايا ومن هذه الأعمال بل من أجلها بر الوالدين والإحسان إليهما

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال" بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نفر يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمْ الْمَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لله فَادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَتِي وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كما كنت أحلب فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أوقظهما مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً فرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بمائة دينار فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مائة دينار فَجِئْتُهَا بِهَا فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رجليها قالت يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَقُمْتُ عَنْهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً فَفَرَجَ لَهُمْ وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا فَجَاءَنِي فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي قُلْتُ اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا فَقَالَ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ

فَإِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللَّهُ مَا بَقِيَ "(١)

– بر الوالدين ولو من الكافرين فى غير معصية :

أرأيت إلى دين أعظم من دين الإسلام ؟؟ إنه يأمر ببر الوالدين المشركين ما داما لا يأمران بمعصية الله سبحانه

" وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا" (٢)

"وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" (٣)

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت "قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي قَالَ نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ"(٤)

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على عاق والديه :

أن يدعو لك النبي صلى الله عليه وسلم فهذا وأبيك الفوز العظيم أما أن يدعو عليك فذلك هو الخسران المبين

لقد بلغ الشقاء بهذا العاق أن يقع تحت طائلة من يدعو عليهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

---

١) مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ٢٨٨/١٣ رقم ٤٩٢٦ .

٢) سورة لقمان الآية : ١٥ .

٣) سورة العنكبوت الآية :٨ .

٤) مسلم فى كتاب الزكاة – باب النفقة والصدقة ..١٧٢/٥ رقم ١٦٧١ .

وسلم قال "رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ " (١)

وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ، فقال :

« آمين آمين آمين » . قيل : يا رسول الله ، إنك حين صعدت المنبر قلت : آمين آمين آمين . ، قال : « إن جبريل أتاني ، فقال : من أدرك شهر رمضان ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله ، قل : آمين ، فقلت : آمين . ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما ، فمات فدخل النار فأبعده الله ، قل : آمين ، فقلت : آمين . ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله ، قل : آمين ، فقلت : آمين » (٢)

أنت ومالك لأبيك :

في زهوة الشباب وإقباله وتفتح المستقبل وازدهاره أو لتضاعف المسؤليات وتراكم الواجبات يظن المرء أنه صاحب المال ولا يملك أحد من الناس محاسبته ومراجعته ولو كان الوالد هو ذلك الأحد فصحح الإسلام لنا هذه النظرة فقد جاء رجل إلي رسول الله فقال :يارسول الله إن أبى غصبني مالى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرجل : « اذهب فأتني بأبيك ، فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : إن الله يقرئك السلام ، ويقول : إذا جاءك الشيخ ، فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه » ، فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما بال ابنك يشكوك ، أتريد أن تأخذ ماله ؟ » ، فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقته إلا على عماته أو خالاته أو على نفسي « ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : » إيه ، دعنا من هذا أخبرنا عن

---

١) مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب – باب رغم أنف ..٣٩٥/١٢ رقم ٤٦٢٧ .

٢) صحيح ابن حبان – باب الأدعية ٣٠٤/٤ رقم ٩٠٩ .

شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك « ، فقال الشيخ : والله ، يا رسول الله ، ما يزال الله يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي ، فقال : » قل ، وأنا أسمع « قال : قلت :

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ

تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل

كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيناي تهمل

فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما فيك كنت أؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... كما يفعل الجار المجاور تفعل

قال : فعند ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه ، وقال : « أنت ومالك لأبيك » [(١)]

والآثار في هذه الوصية الخالدة أكثر من أن تحصى فلتراجع في مظانها وفيما ذكرت الغناء إن شاء الله تعالى .

---

١) المعجم الأوسط للطبراني رقم الحديث ٦٧٥٨ وحسنه الألباني في إرواء الغليل – أول الكتاب ٣٢٤/٣ .

المبحث الثالث :

النهى عن قتل الأولاد:

الوصية الثالثة : "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ "

جعل الإسلام المحافظة على النسل إحدى الضرورات الخمس التي يجب المحافظة عليها وعدم التفريط في حقها وأنت قد مر بك آنفا كيف أوصى الله بالوالدين إحسانا وها هو سبحانه يوصى الأبوين بالأبناء في صورة قشيبة لتصبح الأسرة واحة غناء تفيض حبا وعطاء في ترابط متين واستقرار وتمكين لا يعتريها الفشل ولا يصيبها التفكك .

والنهى عن قتل الأولاد بإطلاق يستوي فيه القتل المعنوي والقتل الحسي كما يستوي فيه أن يكون القتل ناتجا عن فقر مدقع واقع بالفعل أو خيفة حصوله مستقبلا لأن الرزاق أولا وآخرا هو الله الخلاق العليم

ولا ريب أن القتل من أجل هذه العلة إنما ينتج عن خلل في المعتقد وقدح في الإيمان وسأرجئ الحديث عن هذه الجزئية لأعود إليها بعد قليل .

القتل المعنوي

بدهي أن القرآن الكريم لم يتزل على فئة خاصة من الناس ولا لزمان بعينه إنما نزل للعالمين جميعا إلى قيام الساعة فكأني بهذه الآيات وغيرها تخاطب الناس اليوم تعالج عللهم وتبرىء أسقامهم

وليس بلازم أن يذبح الأب ابنه على الحقيقة حتى يعد قاتلا إياه وإنما قد يقتله معنويا وهذا أشد وأقبح ويتمثل هذا في الآتي :

١- عدم اختيار الأم الصالحة : وقد دعا الإسلام إلى اختيار ذات الدين فقال صلى الله عليه وسلم "تنكح الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ "[(١)]

---

١) البخاري في كتاب النكاح – باب الأكفاء في الدين ٣٣/١٦ رقم الحديث ٤٧٠٠ عن أبي هريرة – رضي الله عنه – .

وما ظنك بأسرة أسس بنيانها على غير هدى وصلاح ؟ إن مصيرها غالبا إلى زوال والضحية هم الأولاد الذين يتفرقون أيادي سبا فالأب قد استبدل بأمهم غيرها والأم قد استبدلت بأبيهم غيره فيتلقفهم الشارع بما فيه ومن فيه وهذا من القتل .

٢- عدم الإنفاق على الأسرة :

يستمريء كثير من الناس الراحة والنوم والكسل فلا يخرج لطلب الرزق أو يتعاطى مخدرا يذهب بصحته وماله أو يسهر خارج البيت لقضاء أوقات محرمة تاركا أولاده لا عائل لهم سوى دراهم المحسنين مما يعرض الأم للانحراف والأولاد للضياع وقد قال صلى الله عليه وسلم " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول [(١)]

القتل الحقيقي (الحسي) :

لا يكاد العقل يتخيل هذا المشهد الرهيب إنه لا يتصور من الحيوانات قتل صغارها فكيف يحدث من بنى البشر وقد جاءنا من كلام ربنا ما يمحو هذا الشك من الأذهان

إن القتل وقع حقيقة في الفترة الجاهلية قبل الإسلام قال سبحانه "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ " [(٢)]

وحدثتنا كتب السيرة عن وأد البنات خشية الفقر أو خشية العار الذي يلحق بالقبيلة إذا ما وقعت فتاهم في الأسر

وأحيانا قتل بعض الأولاد الذكور لقلة ذات اليد وكان هذا القتل يأخذ أبشع صوره حين تدفن الضحية وهي حية

---

١) السنن الكبرى للنسائي ٣٧٤/٥ رقم ٩١٧٦ وقال عنه الشيخ / الألباني في صحيح الترغيب والترهيب :حديث حسن لغيره ٢٠٣/٢ رقم ١٩٥٦ .

٢) سورة التكوير الآيتان :٨،٩ .

يالقبح الجاهلية ويالجهالة البشرية ساعة تبتعد عن منهج الله ولكن والحق يقال إنه من الافتراء على العرب قبل الإسلام أن ينسب هذا القبح إلى جميعهم بل إن الحقيقة أن هذه الجريمة لم يتجاوز فعلها أصابع اليد الواحدة حيث كان الأكابر الأكارم من العرب يعملون على افتداء الضحية من أبيها بمبلغ من المال ليبقى عليها حية وإنك لتسمع قائلهم يتغنى بهذا القول

إنما أولادنا أكبادنا   تمشى على الأرض

إذا هبت عليهم ريح الصبا   تأبت أجفاننا على الغمض [(١)]

فلا يسعك بعد ذلك إلا أن تعلم أن تلك الحالات الفردية معدودة من قتل بعض العرب لأولادهم إنما هي حالات شاذة والشاذ لا يقاس عليه

القتل من الفقر أو من خشيته

وهذا أمر مرتبط بالاعتقاد في المقام الأول وقد استحدث الناس بأخرة أحابيل لمنع النسل أساسا قبل أن يأتي والعلة واضحة معروفة أن الإمكانات المادية لا تفي بحاجيات القادم

أن يحدث هذا من أفراد الأمة فتلك مصيبة وأما أن تتبنى الدولة هذا الأمر وترصد له الميزانيات وتسخر له الإعلام بأنواعه فالمصيبة أعظم

إن الدعوة إلى تحديد النسل دعوة مشبوهة مريبة وهى ببساطة تأخذ اتجاهين :

الاتجاه الديني : إن الخوف من المستقبل والخوف من فوات الرزق وقلة الموارد طعن في العقيدة وخلل في الإيمان ذلك لأن الله هو القائل "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" [(٢)]

---

١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢٣٥/١ .

٢) سورة هود الآية :٦

وهو القائل

"وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[1]

وهو القائل "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " [2] إلى غير ذلك من الآيات

ثم إن اعتقاد الإنسان أن الوسيلة المعينة تحول بين الإنجاب حتى وإن كانت مشاهدة فهو اعتقاد باطل لأن الطب بل أهل السماوات والأرض لن يملكوا أن يعطلوا ما أراد الله سبحانه

كما قال سبحانه "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ " [3] ولهذا عقب بعدها مباشرة بقوله سبحانه "مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " [4]

فما يقدر على المنح والمنع إلا الله سبحانه وتعالى "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[5]

ومن هنا نعلم الدلالة من قول النبي صلى الله عليه وسلم "مَا قَدَّرَ اللَّهُ لِنَفْسٍ أَنْ يَخْلُقَهَا إِلَّا هِيَ كَائِنَةٌ " [6]

---

١) سورة العنكبوت الآية :٦٠.

٢) سورة الأعراف الآية :٩٦.

٣) سورة الحج الآية :٧٣ .

٤) سورة الحج الآية : ٧٤ .

٥) سورة فاطر الآية : ٢ .

٦) مسند أحمد ٣٩٢/٢٨ رقم ١٣٨٤٣ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٠٧/٣

وقوله

"اصنعوا ما بدا لكم فما قضى الله تعالى فهو كائن وليس من كل الماء يكون الولد "[1]

وقوله

" اعزلوا او لا تعزلوا ما كتب الله من نسمة هي كائنة غلى يوم القيامة إلا وهي كائنة "[2]

وقال سبحانه

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا "[3]

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية

"أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطي الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول على الفطرة "[4]

ومن هنا يمكن القول إن الطب لن يستطيع مهما تقدم أن يكون له سلطان على سلطان الله

---

١) مسند أحمد ٥٩/٢٣ رقم ١١٠١٤ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٦/٤ .

٢) المعجم الكبير للطبرانى٧/٢ رقم ٧٢٧٨ وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير

٣) سورة الأعراف الآية :١٧٢ .

٤) تفسير ابن كثير ٥٠٢/٣ – سورة الأعراف

يقول أحد العلماء :

" لهذا فانا أقول ليس تحديد النسل من قبيل الحلال او الحرام لأن الحرام والحلال أوصاف لفعل العبد المسلم المرتبط بخطاب التكليف أما تحديد النسل فمرتبط بعقيدة الخليقة لله فمن ظن أو زعم أن وسائل تحديد النسل أو تنظيم النسل لها قدرة على أن تغير ما قدر الله خلقه فهو كافر وقد حكم النبى صلى الله عليه وسلم بكفر من قال " أمطرنا بنوء كذا " [١]

فما بال من يقول إن الطب يقدر على منع ما قدر الله خلقه " [٢]

وحسبك أن تعلم أن الإقدام على قتل الأولاد خشية الفقر من أعظم الذنوب فقد صح "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :

سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ " [٣]

هذا على الصعيد الديني وقد بان لك الخطر العظيم ممن يدعو إلى هذه البلية

الاتجاه الوطني :

يزعم بعضهم أن التردي الاقتصادي، والتخلف الحضاري وانتشار الأمراض والبطالة وتلوث البيئة و .... الخ ناتج عن الانفجار السكاني ويرى هؤلاء أن العلاج لكل هذه المعطلات في تحديد النسل والاقتصار على ولد واحد أو ولد وبنت على الأكثر حتى نجد لقمة العيش وقطرة المياه و ....

---

١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٢١٣ رقم ١٠٤ .

٢) الدعوة في العهد المدني – د/رءوف شلبي ص ٢٦٦ .

٣) البخاري – كتاب تفسير القرآن – باب قوله تعالي فلا تجعلوا لله أندادا ١٣/٣٩٤ رقم ٤١١٧ .

وهذا الكلام بعموم إنما يخرج من حاقد أو جاهل أما الحاقد فهو من غير المسلمين يريد من هذه الدعوة المريبة الحد من عدد المسلمين لأن ثروة أية أمة في عدد رجالها

أو يريد أن يعمل عملية توازن بين عدد المسلمين وعدد غيرهم مما يتيح بالمطالبة بالمزيد من الحقوق والإقطاعات

وإلا فخبرني بربك لماذا لا تطبق الدول الغربية هذا الأمر في بلادها ؟؟

وهل بلغ الحب بالأوربيين مبلغه لدرجة أنهم رصدوا لهذه الحملات المنظمة مليارات الدولارات في صورة خدمات طبية ووسائل مانعة للحمل ومؤتمرات للسكان تعقد هنا وهناك ويحضرها الملأ من القوم إن هذا لشيء عجاب .

ولماذا لا تنفق هذه المليارات على اللاجئين في العراق وغزة وغيرها من البلاد الإسلامية ؟

وهل أتاك نبأ الأمراض المتعددة التي تسببها تلك الوسائل المشبوهة ؟

إن هذه الدعوة موجهة تحديدا للمسلمين دون غيرهم من أمم الأرض وإن من عنده أدنى مسكة من عقل أو أثارة من علم ليدرك هذا المخطط بسهولة ويسر

وأما الجاهل الذي يطنطن بهذه الدعوة ليلا ونهارا سرا وجهارا ويردد خلف الغير ترديد الببغاء أو بالأحرى ترديد الغراب فقد فاته أن دولة كالصين ربت على المليار وربع المليار ومع ذلك فلا معاناة في مواصلات ولا في الإسكان ولا غير ذلك .

إن ادعاء أن السعادة في قلة الأعداد ادعاء كاذب عار عن الحقيقة لأن السعادة مرتبطة بالله رب العالمين وكم ذا رأينا من هو أقل عددا ويحيا حياة التعساء ومن هو أكثر جمعا يحيا حياة السعداء .

والقاعدة في ذلك قول رب الأرض والسماء

" وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ " (١)

إن المشكلة عندنا نحن المسلمين في الوقت الراهن لا تكمن في الزيادة السكانية المطردة وإنما تكمن في سوء توزيع الثروات حيث إن الناس صنفان أحدهما غني غنى فاحش والآخر فقير فقر مدقع فهذا يموت بتخمته وذا يموت بجوعته ، إن الوطن العربي الكبير يمتلك كل مصادر الثروة لكنه للأسف لا يحسن استغلالها مما جعلها مطمعا للعدو والصديق

إذن الدعوة إلى تحديد النسل إنما هي دعوة مشبوهة تعد خيانة وطنية بالإضافة إلى كونها طعن في العقيدة .

وأختم هذه الوصية بكلام العلامة الألوسي رحمه الله حيث يقول :

"وعقب سبحانه التكليف المتعلق بالوالدين بالتكليف المتعلق بالأولاد لكمال المناسبة فقال سبحانه : { وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ } بالوأد { خشية إملاق } [الإسراء : ٣١] من أجل فقر أو من خشيته كما في قوله سبحانه : { خَشْيَةَ إملاق }

وقيل : الخطاب في كل آية لصنف وليس خطاباً واحداً فالمخاطب بقوله سبحانه : { مّنْ إملاق } من ابتلي بالفقر وبقوله تعالى : { خَشْيَةَ إملاق } من لا فقر له ولكن يخشى وقوعه في المستقبل ، ولهذا قدم رزقهم ههنا في قوله عز وجل { نَّحْنُ نرزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية فقيل : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم } [الإسراء : ٣١] وهو كلام حسن . وأياً ما كان فجملة { نَّحْنُ } الخ استئناف مسوق لتعليل النهي وإبطال لسببية ما اتخذوه سبباً لمباشرة المنهي عنه وضمان منه تعالى لإرزاقهم أي نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تقدموا على ما نهيتم عنه لذلك ." (٢)

---

١) سورة الشورى الآية :٢٧ .

٢) تفسير الألوسي ٦٨/٦ – ٦٩ .سورة الأنعام .

المبحث الرابع

الوصية الرابعة : النهى عن الفواحش الظاهرة والباطنة

"وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ "

وهذه الوصية لها أشباه و نظائر فى القرآن العظيم مما يلفت النظر ويستوقف الفكر لنعلم أن الإسلام يريد مجتمعا فاضلا فأنت تراه يقيم الأمة أولا على أساس متين من العقيدة الصحيحة ثم يربط الأسرة التي هي إحدى لبنات المجتمع الكبير برباط مقدس ملؤه الاحترام والحب والعطاء والمودة حتى تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها ثم يعمل على الحفاظ بصورة واضحة على هذا المجتمع من كل شائبة تشوبه فى السر والعلن والغيب والشهادة والظاهر والباطن ويخبر سبحانه أنه عليم بمكنونات الصدور فيقول سبحانه

"وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى " (١)

ويقول "وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ " (٢)

ويقول " وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ " (٣)

ولهذا قال سبحانه "وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ " (٤)

وقال سبحانه "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (٥)

---

١) سورة طه الآية :٧ .

٢) سورة النحل الآية :١٩ .

٣) سورة المائدة الآية :٩٩ .

٤) سورة الأنعام الآية :١٢٠ .

٥) سورة الأعراف الآية:٣٣ .

وتوعد سبحانه هؤلاء الذين يشيعون الرذيلة في المجتمع بالعذاب الأليم

فقال سبحانه "إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "[١]

وجعل من علامات المنافقين أنهم ينهون عن المعروف والفضيلة ويأمرون بالمنكر والرذيلة فقال سبحانه :

"الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "[٢]

يقول الفخر الرازي : " وفي قوله : { مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } دقيقة ، وهي : أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته ، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس ، وذلك باطل ، لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر ، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً ، دل ذلك على أنه إنما تركها

تعظيماً لأمر الله تعالى وخوفاً من عذابه ورغبة في عبوديته . "[٣] (١)

ويقول صاحب الظلال :

" ولما وصاهم الله بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التي تقوم عليها – كما يقوم عليها المجتمع كله – وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها . . فهو نهي مرتبط تماماً بالوصية السابقة عليها . . وبالوصية الأولى التي تقوم عليها كافة الوصايا .إنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ،

---

١) سورة النور الآية : ١٩ .

٢) سورة التوبة الآية :٦٧ .

٣) التفسير الكبير ١٧/٧ – سورة الأنعام .

في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع

والفواحش : كل ما أفحش – أي تجاوز الحد – وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . ولا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص { الفواحش } هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . "[١]

منهج الإسلام في حماية المجتمع من الفاحشة :

إن المتأمل للوصية المباركة التي نحن بصدد الحديث عنها يجد أنها بدأت بقوله تعالى "وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ "

إنه النهي الوقائي حتى مجرد الاقتراب ممنوع لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .. تماما كما قال سبحانه

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ "[٢]

لأن الطريق إلى الحرام يبدأ بخطوه أو نظرة أو كلمة أو غير ذلك ...

---

١) في ظلال القرآن ١٧١/٣ –١٧٢ – سورة الأنعام .

٢) سورة النور الآية : ٢١ .

ومن التدابير الوقائية التي اتخذها الإسلام صيانة للمجتمع ما يلي :-

١- غض البصر ، حيث يقول سبحانه " قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ " (١)

٢- عدم الخلوة بالأجنبية إلا في وجود محرم من باب قاعدة سد الذرائع

قال صلى الله عليه وسلم

" لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا وَخَرَجَتْ امْرَأَتِي حَاجَّةً قَالَ اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ " (٢)

٣- منع مصافحة النساء الأجنبيات : لما في ذلك من إثارة الغرائز والشهوات وكل ذلك من مقدمات الفاحشة إلا أن تكون من العجائز اللاتي لا تخشى منهن الفتنة فقد روى أن أبا بكر رضي الله عنه كان يزور قبيلة كان قد ارتضع فيها فيصافح العجائز (٣)

فعن عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِ اللَّهِ{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ إِلَى قَوْلِهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ } قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ بَايَعْتُكِ كَلَامًا وَلَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكِ " (٤)

---

١) سورة النور الآيتان : ٣٠-٣١ .

٢) البخاري – كتاب الجهاد والسير باب من اكتتب في جيش ١٠/١٩٢ رقم ٢٧٨٤ .

٣) انظر فتح القدير ٢٢/١٨٧ .

٤) البخاري –كتاب تفسير القرآن – باب إذا جاءكم المؤمنات ١٥/١٦٥ رقم ٤٥١٢ .

٤- منع التبرج والسفور : فعن أبي موسى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا يَعْنِي زَانِيَةً

وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ"(١)

٥- الدعوة إلى الزواج المبكر :

ذلك لأنه عصمة من الوقوع في الفواحش لما فيه من غض للبصر وحفظ للفرج فقال صلى الله عليه وسلم :

" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"(٢)

إن الإسلام يعمل على تربية الفرد والجماعة على تقوى الله ومراقبته في السر والعلانية ويقيم من داخله حارس الضمير حتى لا يتزلق في براثن الفواحش الظاهرة والباطنة فيحيى الفرد والمجتمع حياة طيبة وتصبح الأمة في المقدمة والصدارة تقود الناس إلى صراط الله المستقيم بمنهج الله القويم .

---

١) سنن الترمذي – باب ما جاء في كراهية خروج المرأة ٩/٤٦٩ رقم ٢٧١٠ .

٢) مسلم – كتاب النكاح – باب استحباب الزواج لمن تاقت نفسه ٧/١٧٣ رقم ٢٤٨٥ .

المبحث الخامس :

النهى عن قتل النفس إلا بالحق :

الوصية الخامسة " ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق "

يقول صاحب التفسير الكبير "والنوع الخامس : قوله : { وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق } .

واعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين : إحداهما : أن الإفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم ، كقوله : { وَمَلَٰئِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال } [البقرة : ٩٨] والثانية : أنه تعالى أراد أن يستثني منه ، ولا يتأتى هذا الاستثناء في جملة الفواحش.

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : { إِلاَّ بالحق } أي قتل النفس المحرمة قد يكون حقاً لجرم يصدر منها . والحديث أيضاً موافق له وهو قوله عليه السلام : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » والقرآن دل على سبب رابع ، وهو قوله تعالى : { إِنَّمَا جَزَاءُ الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأرض فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ } [المائدة : ٣٣] .

والحاصل : أن الأصل في قتل النفس هو الحرمة وحله لا يثبت إلا بدليل منفصل ثم إنه تعالى لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذي يقرب إلى القلب القبول ، فقال : { ذلكم وصاكم بِهِ } لما في هذه اللفظة من اللطف والرأفة، وكل ذلك ليكون المكلف أقرب إلى القبول ، ثم أتبعه بقوله : { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } أي لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف ، ومنافعها في الدين والدنيا ." [١]

---

١) التفسير الكبير – سورة الأنعام .

إن الإنسان ليحس بالروعة والجلال بمجرد أن يطالع كتاب الله القرآن الكريم حيث يشعر بقيمته كإنسان لما يرى من تكرار الآيات التي تنهي الغير عن أن يمسه بسوء أو يعرض له بأذي ومن الآيات التي تطالعك في هذا الشأن ما قصه الله علينا من نبأ ابني آدم الذي تورع أحدهما عن قتل أخيه لأنه يخشي الله ويخاف عقابه بينما طوعت للآخر نفسه الآثمة أن يقتل أخاه فأصبح من الخاسرين [١] (٢)

فكان هذا القاتل أول من سن القتل من بني آدم فكان عقابه أن يحمل من كل جريمة كفلا إلي يوم القيامة

وفي هذا يقول النبي صلي الله عليه وسلم

" لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ" [٢]

وتختم الآيات قصة ابني آدم بالتشنيع علي من يعتدي على الأنفس بغير حق في أسلوب يملأ أقطار النفس هيبة وخشية من قبح هذه الجريمة يقول الله تعالي

" مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" [٣]

ومن هذه الآية يتضح لنا مدي اهتمام الإسلام بالنفس الإنسانية وتجريمه لمن يعتدي عليها وذلك لأن الذي يقتل نفسا بغير حق يكون قد استباح دما مصونا قد حماه الإسلام بشرائعه وأحكامه ومن استباح هذا الدم في نفس واحدة فكأنه قد استباحه في نفوس الناس جميعا إذ النفس الواحدة تمثل النوع الإنساني كله ومن

---

١) القصة في سورة المائدة من الآية :٢٧– ٣٢ .

٢) البخاري – باب خلق آدم وذريته ١١٦/١١ رقم ٣٠٨٨ .

٣) التفسير الوسيط د/ سيد طنطاوي – سورة المائدة .

أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا : أي ومن تسبب في إحيائها وصيانتها من العدوان عليها كأن استنقذها مما يؤدي بها إلي الهلاك والأذي الشديد أو يمكن الحاكم من اقامة الحد علي قاتلها بغير حق. من فعل ذلك فكأنما تسبب في إحياء الناس جميعا

وفي هذه الجملة الكريمة أسمي ألوان الترغيب في صيانة الدماء وحفظ النفوس من العدوان عليها حيث شبه سبحانه قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا وإحيائها بإحياء الناس جميعا (١)

ومن وصايا ربنا سبحانه وتعالي في سورة الأنعام " وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " ثم تأتي الوصية مكررة للتأكيد عليها في سورة الإسراء فيقول سبحانه

" وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا " (٢)

ولما لقتل النفس بغير حق من البشاعة والنكر فقد توعد الله من يفعل ذلك بالغضب عليه وطرده من رحمته وخلوده في جهنم قال سبحانه

" وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا " (٣) وهذه الآية تأتي بعد ذكر الله تعالى وبيانه لكفارة القتل الخطأ

وأما هنا حيث القتل العمد فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان والتي لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة وإنما يوكل جزاؤها وعقابها إلي عذاب الله إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب بغير حق ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشاها الله بين المسلم والمسلم

---

١) سورة الإسراء الآية : ٣٣

٢) سورة النساء الآية :٩٣

٣) سورة النساء الآية: ٤٣ .

إنما تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها ومن ثم قرنت بالشرك في مواضع كثيرة واتجه بعضهم ومنهم ابن عباس إلي أنه لا توبة منها ولكن البعض قالوا بالتوبة ويستند إلي قوله تعالي " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا " (١)

فرجا للقاتل التائب المغفرة وفسر الخلود الدهر الطويل (٢)

ويقول الزمخشري في تفسيره لقوله تعالي " ومن يقتل مؤمنا متعمدا " :

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب جسيم ومن ثم روي عن ابن عباس أنه لا توبة للقاتل عمدا وعن سفيان الثوري كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له وذلك محمول منهم علي الاقتداء بسنة الله تعالي في التغليظ والتشديد وإلا فكل ذنب ممحو وناهيك بمحو الشرك دليلا وفي الحديث

" لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل امرئ مسلم بغير حق "

وفيه أيضا : لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه " وفيه أيضا " إن هذا الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه "

وفيه أيضا " ومن أعان علي قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله "(٣)

ومن الثابت المعلوم لدي كل المسلمين قاصيهم ودانيهم حرمة الكعبة المشرفة قبلة المسلمين في عبادتهم ومعلوم ما تحظي به من تقديس وتبجيل إلا أننا نجد حبر الأمة عبد الله بن عباس يشير إليها ويقول " والله إن حرمتك لعظيمة ولحرمة دم المؤمن أعظم عند الله من حرمتك "

---

١) في ظلال القرآن ٧٣٦/٢ – سورة النساء .

٢) الكاف للزمخشرى ١٨٦/١ .

٣) سورة القيامة الآيتان : ٢٧ –٢٨ .

إلي هذا المدي يبالغ الإسلام في التحذير من الولوغ في الدماء الحرام وما وضعه الإسلام من عقاب في ما سبق لا يعدو كونه عقابا أخرويا يتحقق وقوعه بعد وفاة المجرم القاتل ومن النفوس من لا ترتدع بالعقاب الآجل ولو كان عظيما ولا تنظر إلا إلي القريب العاجل وهذا شأنها في الثواب والعقاب علي حد سواء ولهذا قال الله تعالي " كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة " [١]

وقال سبحانه " إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا " [٢]

ولهذا جاء الإسلام بالعقاب الذي يردع هذه النفوس الشريرة عن غيها ويردها إلي صوابها وهذا العقاب دنيوي فزاوج الإسلام في عقابه للمجرمين بين العاجل القريب والآجل البعيد : بين الدنيا والآخرة وهذا من جمال شريعة الإسلام ومنهجها لقيامها بكل مطلوب ووفائها لكل احتياج علي اختلاف الزمان والمكان

والعقاب الدنيوي هو في هذه الآية :

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [٢]

والقصاص في الآية الكريمة يدل علي المساواة والمماثلة يقول القرطبي رحمه الله " أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل " [٣]

والمساواة بينهما تفهم من قوله تعالي " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ

---

١) سورة الإنسان الآية : ٢٧ .

٢) سورة البقرة الآيتان :١٧٨ -١٧٩ .

٣) تفسير القرطبي ٢٤٨/٢ .

قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " [١]

الحكمة من القصاص :

إذا كان الإسلام يدعو إلي حفظ النفس الإنسانية وصيانتها ووقع بالفعل وقتل أحد الناس فردا في المجتمع فما معني أن تأتي بالقاتل ونلحقه بالمقتول ؟

فبعد أن كان المقتول واحدا أصبح اثنين ألا يوجد حل آخر غير القتل إنقاذا لتلك النفس الثانية أن تهدر؟؟

والحق الذي لا مراء فيه أن القصاص من القاتل بقتله هو أولا وقبل كل شيء حكم الله وشرعه وإذا سلمنا أننا خلق الله وأنه هو الخالق فإننا يلزمنا الإذعان لشرعه وحكمه لأن الذي يملك الخلق هو الذي يملك التشريع وهو أعلم بخلقه ما يصلحهم وما يفسدهم " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " [٢]

بل إن الله أقسم بنفي الإيمان عمن لا يحكم بمنهج الله ورسوله ولا يجد في نفسه غضاضة أو ضيقا قال سبحانه " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " [٣]

والقصاص ثانيا هو تلبية للفطرة الكامنة في الإنسان وفيه من الحكم البالغة والفوائد الجمة الكثير أذكر بعضها فيما يلي :

١- أن في القصاص حياة للنفوس وذلك بنص القرآن الكريم حيث يقول تعالي " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [٤]

---

١) سورة المائدة الآية : ٤٥ .

٢) سورة الملك الآية : ١٤ .

٣) سورة النساء الآية :٦٥ .

٤) سورة البقرة الآية : ١٧٨ .

ومن هذه الآية ندرك الحكمة التي من أجلها شرع الله القصاص وهى الحياة الآمنة التي يطمئن فيها كل إنسان على نفسه وروحه ، وليست هي الانتقام ولا إرواء الأحقاد وإنما القصاص في الإسلام أجل من ذلك وأعلى .. إنه الحياة ... الحياة التي تنبسق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الغضب والثورة ، فالذي يؤمن أنه يدفع حياتة ثمنا لحياة من يقتل يفكر ألف مرة قبل الإقدام على الفعل

الحياة التي تنبسق من شفاء صدور أولياء المقتول الذين يرون بأعينهم القصاص العادل في من اعتدى بالأمس على ذي قرابتهم ، شفاء لهذه الصدور من الحقد والنار المتأججة والرغبة في الانتقام والثأر....

الثأر الذي لا يقف عند حد إذا عرف طريقه إلى دنيا الناس ، وكم حصد هذا الشيطان اللعين من النفوس فى القديم والحديث ؟

وقد كانت قديما تمتد معارك الثأر بين القبائل العربية إلى أكثر من أربعين عاما كما حدث في حرب البسوس وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب التاريخ

وأما حديثا فلا يخفى على كل ذي عينين ما يجرى على أرضنا وبلادنا من جرائم الثأر التي تصك بفظاعتها الآذان ، وتقشعر لهولها الأبدان ، فأصبح القتل لأحقر الأسباب وأهونها ، وما ذلك إلا لأن من الناس من ولوا ظهورهم للمساجد ومجالس الوعظ ، ولم يعد في القلوب مكان لسماع موعظة أو تقديس الأوامر والنواهي الشرعية ، ولم يعد يعمل بحكم الله وشرعه في القصاص ، وإنما استبدل الناس بقانون الله العادل الرحيم قانونا أخرقا كله عيوب وثغرات يستطيع المجرم من خلالها الإفلات من العقوبة والجزاء ، ولذلك نادرا ما تسمع بتنفيذ حكم الإعدام ولكن غالبا وكثيرا ما تسمع بحوادث القتل هنا وهناك...

إنه لا صيانة للنفوس والدماء والأموال والأعراض وكل ما يخشى عليه إلا في ظل الإسلام والعمل بمنهج الله تعالى وتنفيذ شرائعه وأما بدون الإسلام ففي الحال غناء عن المقال .

وعن فوائد القصاص يقول الإمام أبو زهرة:

إن القصاص كما جاء في الأديان جميعا فيه العدالة التي لا يمكن أن يتصور العقل أمثل منها وفيه مزايا كثيرة لا توجد في عقوبة الحبس أو نحوه من العقوبات الأخرى فهو :

يعتبر جزاء وفاقا للجريمة إذ هي اعتداء على النفس فتكون العدالة أن يأخذ المجرم بمثل فعله وليس من المعقول أن يفقد أب ولده ويرى قاتله يروح ويغدو بين الناس وقد حرم هو من رؤية ولده وغير ذلك

وليس من المعقول أن نفكر في الرحمة للمجرم وننسى آلام الضحية أو وليها فإن ذلك قلب لأوضاع المنطق العقلي السليم .

والقصاص يلقى في نفس الجاني عند ارتكاب الجريمة أن الجزاء الذي ينتظره هو مثل ما يعمله ، وأن ذلك يلقى الاضطراب في نفسه إذ يحس بأنه لا فكاك من إنزال العقوبة به ، وأن الفرار يجعله مشردا دائما ، ولن يغيب عن أعين المتعقبين له من الشرطة أو أولياء المجني عليه ، وأن السيف ينتظر رقبته طال الزمان أو قصر ، وأن ذلك الإحساس إذا قوى عنده قد يمنعه من ارتكاب الجريمة .

والقصاص يشفى غيظ المجني عليه الذي اعتدى على جزء من جسده فلا يشفيه سجن مهما يكن مقداره ، بل يشفيه أن يتمكن من الجاني فيصنع به مثلما صنع به كما لا يشفى ولى المقتول أن يسجن القاتل بل يشفيه أن يتمكن من رقبة القاتل وهكذا " [1]

والقصاص فوق هذا كله : فيه حياة المجتمع حياة عالية سامية هادئة بعد أن يجتث منه الأشرار ولذا قال سبحانه " ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب" وفى هذه الآية معان كثيرة منها :

---

1) العقوبة للإمام محمد أبي زهرة ص ٣٦٦ .

– جعلت الآية فائدة القصاص لا تعود إلى ولى الدم وحده ولكنها تعود إلى الجماعة كلها ويفهم من هذا قوله " ولكم "

–تسمية العقوبة قصاصا لأن القصاص يتضمن المساواة بين الجريمة والعقوبة كما يفهم من المعنى اللغوي لكلمة القصاص أنها تتبع لأثر الجريمة والمجرم وقطع الجريمة هو عين الإصلاح في المجتمع والجماعة فلا صلاح لمجتمع لا يعمل على محو الجريمة أو يتغاضى عنها بحجة الرحمة والرأفة والتماس المعاذير

– تقرر الآية أن حياة الجماعة في القصاص لأنه إذا لم يكن القصاص أهدرت الدماء فأصبح الأمر لذي الغلب والقوة ، ولا اطمئنان لمن يؤثرون العافية والسلامة وتحكم في الجو الجماعي أهل الفساد .

– والآية تشير إلى أن الحياة للجماعة بالقصاص تكون حياة فاضلة فيها اطمئنان على الأنفس والأموال والأعراض

ولذلك نكرت كلمة " حياة " والتنكير هنا للتفخيم والتعظيم ، والاستقرار حيث يذهب منها أهل الدعارة والفسق ولا يظهر في جوها إلا أهل الطهر والصلاح والاستقامة– والآية تشير إلى معنى القصاص وغايته وسمو شرعيته لا تدركه إلا العقول السليمة المستقيمة ولذلك جعل الله سبحانه الخطاب لأولى الألباب دون غيرهم "[1]

فهل آن للعقول أن تستقيم على صراط الله القويم وتستضيء بالنور الذي أنزله ؟؟

وبعد هذه الوصايا الخمسة الماتعة يعقب ربنا بهذا التذييل البديع والأسلوب الرفيع " ذلكم وصاكم به "

---

١) المرجع السابق ص ٣٤٠

ولله ما في هذه اللفظة – الوصية من دلالات الرحمة والشفقة وقد خاب وخسر من لم يقبل وصية سيده ومولاه رب العالمين

" لعلكم تعقلون "

ولابد أن يكون لذكر العقل هنا دلالة معينة دون غيره من الاصطلاحات يقول صاحب النكت والعيون :

" لعلكم تعقلون " يحتمل وجهين أحدهما : تعقلون تحريم ذلك عليكم وتعلمونه .

والثاني : تعملون عمل من يعقل وهو ترك ما أوجب العقاب من هذه المحرمات "[1]

---

١) النكت والعيون ١/٤٥٥ .

المبحث السادس :

النهى عن أكل مال اليتيم ظلما :

الوصية السادسة "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ"(١)

يقول صاحب النكت والعيون : " إنما خص مال اليتيم بالذكر وإن كان مال غيره في التحريم بمثابته ، لأن الطمع فيه لقلة مراعيه أقوى ، فكان بالذكر أولى .

وفي قوله : { إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } أربعة تأويلات :

أحدها : حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه ، قاله الكلبي .

والثاني : أن ذلك هو التجارة به ، قاله مجاهد .

والثالث : هو ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئاً ، قاله الضحاك .

والرابع : هو أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إن افتقر ، ويترك إن استغنى ، ولا يتعدى من الأكل إلى الباس ولا غيره ، قاله ابن زيد .

ويحتمل خامساً : أن التي هي أحسن : حفظ أصوله وتثمير فروعه .

ثم قال : { حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } والأشد القوة والشباب .

وفي حدها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيئات ، قاله ربيعة ، وزيد بن أسلم ، ومالك .والثاني : أن الأشد ثلاثون سنة ، قاله السدي .

والثالث : أن الأشد ثماني عشرة سنة ، ذكره علي بن عيسى "(٢)

أرأيت إلى ذلك الذي يجترىء على مال اليتيم فيقتطع منه شيئا بغير حق !

أو أن ينتزع منه مالا بغير سلطان إنه يجرجر فى بطنه نارا لكنه في سكرة الحياة لا يأبه بشيء يقول سبحانه :" إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا "(١)

---

١) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢ .

٢) النكت والعيون ٤٥٦/١ .

وتتكرر الوصية باليتيم بنصها في سورة الإسراء حيث يقول سبحانه

" وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ "(٢)

يقول صاحب الظلال :

"واليتيم ضعيف في الجماعة ، بفقده الوالد الحامي والمربي ، ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة– على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي – وكان اليتيم ضائعاً في المجتمع العربي في الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة في القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشي بما كان فاشياً في ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه؛ حتى انتدب الله يتيما كريماً فيه؛ فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة . وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه :

{ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده } .

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التي هي أحسن لليتيم . فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده . أي اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمي ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضواً نافعاً؛ وسلمته حقه كاملا "(٣) (٢)

منهج الإسلام في العناية باليتيم

إنه فضلا عن الأمر بالمحافظة على مال اليتيم حتى يبلغ أشده فإن هناك من الأيتام من لا يملك شيئا أفيترك هذا في المجتمع دون كافل أو راع ؟

---

١) سورة النساء الآية : ١٠ .

٢) سورة الإسراء الآية : ٣٤ .

٣) في ظلال القرآن ١٧٣/٣ .

لا.. إن الإسلام فرض على المجتمع كفالته وتربيته ورعايته وحث النبي صلى الله عليه وسلم في غير موضع من السنة المطهرة

ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال

"قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا" [١]

— إكرام اليتيم باب من أبواب الجنة :

فعن أبي هريرة قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَا قَالَ فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَا قَالَ فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَا قَالَ فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ " [٢]

إهانة اليتيم من علاماتِ التكذيب بيوم الدين :

يقول سبحانه :"أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ " [٣]

يقول صاحب الظلال :"إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس؛ ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرده ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

---

١) البخاري – كتاب الطلاق باب اللعان ٣٥٧/١٦ رقم ٤٨٩٢ .

٢) مسلم – كتاب الزكاة – باب من جمع الصدقة وأعمال البر ٢٢١/٥ .

٣) سورة الماعون الآيات : ١ – ٣ .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدي منها الإنسان ما يشاء ، ويدع منها ما يشاء . . إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر . غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء . . وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه . وقد يصلي ، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيداً عنها ، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها .

وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان!

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها (كما قلنا في سورة العصر) لكي تحقق ذاتها في عمل صالح . فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً . وهذا ما تقرره هذه السورة نصاً . " [١]

أكل مال اليتيم ظلما من السبع الموبقات :

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ" [١]

---

١) في ظلال القرآن – تفسير سورة التين .

المبحث السابع :

الوصية بإيفاء الكيل والميزان :

قال سبحانه"وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"[٢]

إن طبائع الناس متشابهة متقاربة في القديم والحديث ولكأنما قدوا من نسيج واحد فحب المال يطغى على كثير من النفوس المريضة فيخرج بها عن الجادة فإذا اشترى لنفسه سلعة أراد الزيادة فوق حقه وإذا أراد أن يبيع لغيره بخسه حقه ولهذا فان الله تعالى سمى سورة في القرآن بصفة هذا الصنف من الناس متوعدا إياهم بالعذاب الشديد فقال سبحانه : "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " [٣]

وقد قص الله علينا في قرآنه نبأ قوم مدين وكيف تفشى فيهم هذا الداء العضال مع وفرة ما عندهم من الخيرات فأرسل الله إليهم عبده شعيبا عليه السلام يحذرهم من مغبة هذا الصنيع وعاقبة هذا الإجرام

قال سبحانه " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " [٤]

---

١) البخاري – كتاب الوصايا – باب قول الله تعالي إن الذين يأكلون أموال اليتامى ٣١٤/٩ رقم ٢٥٦٠ .

٢) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢ .

٣) سورة المطففين الآيات ١– ٥ .

٤) سورة الأعراف الآية :٨٥ .

وطالما اقترن الفساد فى الأرض بجريمة تطفيف المكيال وبخس الميزان وهذا أمر بدهى إذ فيه ضياع الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل وقد نهى الله سبحانه عن ذلك فى قوله : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" [١]

إنها حلقة في سلسلة التربية ، وحلقة في سلسلة التشريع . . والتربية والتشريع في المنهج الإسلامي متلازمان؛ أو متداخلان؛ أو متكاملان . . فالتشريع منظور فيه إلى التربية؛ كما هو منظور فيه إلى تنظيم شؤون الحياة الواقعية؛ والتوجيهات المصاحبة

للتشريع منظور فيها إلى تربية الضمائر؛ كما أنه منظور فيها إلى حسن تنفيذ التشريع ، وانبعاث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع؛ وتحقق المصلحة فيه . والتشريع والتوجيه المصاحب منظور فيهما – معاً – إلى ربط القلب بالله ، وإشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه . . وهذه هي خاصية المنهج الرباني للحياة البشرية . . هذا التكامل الذي يصلح الحياة الواقعية ، ويصلح الضمير البشري في ذات الأوان . .

وهنا في هذه الفقرة نجد النهي للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل – وبيان الوجه الحلال للربح في تداول الأموال – وهو التجارة – ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس؛ وهلكة وبوار . ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة ، ومس النار!

ثم يقول :" { ولا تقتلوا أنفسكم . إن الله كان بكم رحيماً } . .

---

١) سورة النساء الآيتان : ٢٩–٣٠ .

تعقيب يجيء بعد النهي عن أكل الأموال بالباطل؛ فيوحي بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة؛ إنها عملية قتل . يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها ، حين ينهاهم عنها!

وإنها لكذلك . فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة : بالربا والغش . والقمار . والاحتكار . والتدليس . والاختلاس . والاحتيال . والرشوة . والسرقة . وبيع ما ليس يباع : كالعرض . والذمة . والضمير . والخلق . والدين! – مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء – ما تروج هذه الوسائل في جماعة ، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها ، وتتردى في هاوية الدمار! والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة ، المردية للنفوس؛ وهذا طرف من إرادة التخفيف عنهم؛ ومن تدارك ضعفهم الإنساني ، الذي يرديهم حين يتخلون عن توجيه الله ، إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات!

ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة ، تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل ، معتدين ظالمين . تهديدهم بعذاب الآخرة؛ بعد تحذيرهم من مقتلة الحياة الدنيا ودمارها . الآكل فيهم والمأكول؛ فالجماعة كلها متضامنة في التبعة؛ ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة ، التي تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله في الدنيا والآخرة :{ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ، فسوف نصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيراً }

وهكذا يأخذ المنهج الإسلامي على النفس أقطارها – في الدنيا والآخرة – وهو يشرع لها ويوجهها؛ ويقيم من النفس حارساً حذراً يقظاً على تلبية التوجيه ، وتنفيذ التشريع؛ ويقيم من الجماعة بعضها على بعض رقيباً لأنها كلها مسئولة؛ وكلها تصيبها المقتلة والدمار في الدنيا ، وكلها تحاسب في الآخرة على إهمالها وترك الأوضاع الباطلة تعيش فيها ." (١)

---

١) في ظلال القرآن – سورة النساء .

ولكن قوم شعيب كانوا قد استمرأوا المكسب العاجل السريع مع ما هم فيه من خير ونعيم ولكنه الطغيان الذى يعمى صاحبه عن رؤية الضعفاء والمعوزين والذي يحجب البصيرة فلا يرى المرء إلا نفسه طمعا وجشعا

وقد كان نصيب نبي الله شعيب من هؤلاء المجرمين التهكم والاستهزاء

" قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " (١)

وقد حل عقاب الله بهم فأخذهم عذابه "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ " (٢)

وإنها لصورة رهيبة مروعة تلك التي يصورها لنا القرآن عن ما حل بهؤلاء القوم وبديارهم وخيراتهم لعل العبرة تأخذ موقفها من القلب فلا تلهث النفس خلف شيء ليس من حقها ولا تمنع نفسا حقها

عَنْ سُوَيْدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ

جَلَبْتُ أَنَا وَمَخْرَفَةُ الْعَبْدِيُّ بَزًّا مِنْ هَجَرَ فَجَاءَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَاوَمَنَا بِسَرَاوِيلَ وَعِنْدِي وَزَّانٌ يَزِنُ بِالْأَجْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْوَزَّانِ زِنْ وَأَرْجِحْ قَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ جَابِرٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ سُوَيْدٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَأَهْلُ الْعِلْمِ يَسْتَحِبُّونَ الرُّجْحَانَ فِي الْوَزْنِ " (٣)

إن كثيرا من المسلمين يظن أن الدين عبارة عن صلوات تؤدى ورمضان يصام وبيت يحج وإذا ما بلوته بالدرهم والدينار والوزن والمكيال وليت منه فرارا وملئت

---

١) سورة هود الآية : ٨٧ .

٢) سورة هود الآيتان : ٩٤– ٩٥ .

٣) سنن الترمذي – باب ما جاء في الرجحان في الوزن ١٢٥/٥ رقم ١٢٢٦ .

منه رعبا ، فشتان ما بين المظهر والمخبر والمسجد والمعاملة فى نظره وما هكذا الإسلام إن الدين عندنا هو المعاملة ألم يقل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

" رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى " (١)

إن كثيرا من بلاد شرق آسيا دخلها الإسلام عن طريق التجار المسلمين لم يكونوا دعاة بالكلام ولكن كانوا تجارا صادقين أمناء سمحة نفوسهم راضية قلوبهم صادقة وعودهم وافية عهودهم فلما سئلوا عن هذه الأخلاقيات قالوا إنها أخلاق الإسلام علمنا إياها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

إن الطامة الكبرى التي يحياها المسلمون اليوم هي أنهم فصلوا بين العقيدة والعمل .. بين العبادات والمعاملات ،أو هكذا أريد بهم حتى تخرج أجيال تألف هذا الواقع ، وتأبى الخروج منه ، بل وتقاتل من أجله ، معتقدة أن هذا هو الدين بعد أن مسخت هويتها،

إن الإسلام منهج حياة متكاملة هكذا أراده الله رب العالمين ، وإلي هذا دعا الأنبياء والمرسلون ،

يقول صاحب التفسير الكبير "وقوله : { بالقسط } أي بالعدل لا بخس ولا نقصان .

فإن قيل : إيفاء الكيل والميزان ، هو عين القسط ، فما الفائدة في هذا التكرير؟

قلنا : أمر الله المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصانه ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة .

واعلم أنه لما كان يجوز أن يتوهم الإنسان أنه يجب على التحقيق وذلك صعب شديد في العدل أتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال : { لاَ نُكَلِّفُ

١) البخاري – كتاب البيوع – باب السهولة والسماحة في الشراء ٢٤٠/٧ رقم ١٩٣٤ .

نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا } أي الواجب في إيفاء الكيل والوزن هذا القدر الممكن في إيفاء الكيل والوزن . أما التحقيق فغير واجب " (١)

وأما جملة "لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " فهى الجمال بعينه إذ تعنى تمام الرحمة مع كمال الحكمة منه سبحانه وتعالى

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور :

"ظاهر تعقيب جملة : { وأوفوا الكيل } إلخ بجملة : { لا نكلف نفساً إلا وسعها } أنّها متعلّقة بالتي وليتها فتكون احتراساً ، أي لا نكلّفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبّة والذرّة ولكنّا نكلّفكم ما تظنّون أنّه عدل ووفاء . والمقصود من هذا الاحتراس أنْ لا يَترك النّاسُ التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة ، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة . وقد عدل في هذا الاحتراس عن طريق الغيبة الذي بُنيَ عليه المقول ابتداء في قوله

{ ما حرم ربكم عليكم } لما في هذا الاحتراس من الامتنان ، فتولّى الله خطاب النّاس فيه بطريق التكلّم مباشرة زيادة في المنّة ، وتصديقاً للمبلّغ ، فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان راجعة إلى حفظ مال المشتري في مظنّة الإضاعة ، لأنّ حالة الكيل والوزن حالة غفلة المشتري ، إذ البائع هو الذي بيده المكيال أو الميزان ، ولأنّ المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون قد يتحمّل التّطفيف ، فأوصي البائع بإيفاء الكيل والميزان وهذا الأمر يدلّ بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال فيما هو أشدّ من التّطفيف ، فإنّ التّطفيف إن هو إلاّ مخالسة قَدْر يسير من المبيع ، وهو الذي لا يظهر حين التّقدير فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أوْلى بالحفظ ، وتجنّب الاعتداء عليه .

١) التفسير الكبير – سورة الأنعام .

ويجوز أن تكون جملة : { لا نكلف نفساً إلا وسعها } تذييلاً للجمل التي قبلها ، تسجيلاً عليهم بأنّ جميع ما دُعوا إليه هو في طاقتهم ومكنتهم "[1]

نقص المكيال والميزان سبيل البؤس والشقاء :

أرأيت كيف يجنى الطمع والجشع على الفرد والمجتمع ؟

إن النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من معاص إذا تفشت في الأمة جعلتها أثرا بعد عين ، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال " "أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ "[2]

---

١) التحرير والتنوير – سورة الأنعام .

٢) سنن ابن ماجة – باب العقوبات ٢٥/١٢ رقم ٤٠٠٩ . وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٠٥/١ .

المبحث الثامن

العدل في القول

الوصية السابعة " وإذا قلتم فاعدلوا "

جاء في الصحاح في اللغة :

"العَدْلُ: خلاف الجَوْر. يقال: عَدَلَ عليه في القضيّة فهو عادلٌ. وبسط الوالي عَدْلَهُ ومَعْدِلَتَهُ ومَعْدَلَتَهُ. وفلان من أهل المَعْدَلَة، أي من أهل العَدْل. ورجلٌ عَدْلٌ، أي رضاً ومَقْنَعٌ في الشهادة. وهو في الأصل مصدرٌ. وقومٌ عَدْلٌ وعُدولٌ أيضاً، وهو جمع عَدْل. وقد عَدُلَ الرجلُ بالضم عَدالَةً.

قال الأخفش: العِدْلُ بالكسر: المِثْلُ. والعَدْلُ بالفتح، أصله مصدر قولك: عَدَلْتُ بهذا عَدْلاً حسناً، تجعله اسماً للمِثْل؛ لتفرّق بينه وبين عِدْل المتاع. وقال الفراء: العَدْلُ بالفتح ما عادَلَ الشيءَ من غير جنسه. والعِدْلُ بالكسر: المِثْلُ. تقول: عندي عِدْلُ غلامِك وعِدْلُ شاتِك، إذا كانَ غلاماً يَعْدِلُ غلاماً وشاة تعدل شاةً. فإذا أردت قيمته من غير جنسه نصبت العين، وربَّما كسرها بعض العرب وكأنّه منهم غلطٌ. قال: وقد أجمعوا على واحد الأعْدالِ أنه عِدْلٌ بالكسر. والعَديلُ: الذي يُعادِلُكَ في الوزن والقَدْر. يقال: فلانٌ يُعادِلُ أمره عِدالاً ويُقَسِّمُهُ، أي يُمَيِّلُ بين أمرين أيَّهما يأتي.

والعِدالُ: أن يقول واحدٌ فيها بقية، ويقول الآخر: ليس فيها بقيَّةٌ. وعَدَلَ عن الطريق: جارَ. وانْعَدَلَ عنه مثله. وعَدَلَ الفحلُ عن الإبل، إذا ترك الضِراب. وعادَلْتُ بين الشيئين. وعَدَلْتُ فلاناً بفلان، إذا سوَّيْتَ بينهما. وتَعْديلُ الشيءِ: تقويمُه. يقال عَدَّلْتُهُ فاعْتَدَلَ، أي قوَّمته فاستقام. وكلُّ مثقَّفٍ مُعْتَدِلٌ. وتَعْديلُ الشهود: أن تقول إنَّهم عُدولٌ. ولا يُقْبَلُ منها صَرْفٌ ولا عَدْلٌ. فالصَرفُ التوبَةُ، والعدلُ: الفديَةُ. ومنه قوله تعالى: " وإنْ تَعْدِلْ كلَّ عَدْلٍ لا يؤخذْ منها " أي تَفْدِ

كلَّ فداءِ. وقوله تعالى: " أوْ عَدْلُ ذلك صياماً " أي فداء ذلك. والعادل: المشركُ الذي يَعْدِلُ بربّه، ومنه قول تلك المرأة للحجاج: إنك لَقاسطٌ عادلٌ.[1] (١)

يقول الفخر الرازي :

"واعلم أن هذا أيضاً من الأمور الخفية التي أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة، والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط ، والأمر والنهي فقط ، قال القاضي وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول ، فيدخل فيه ما يقول المرء في الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة ، قريبة من الأفهام ، ويدخل فيه أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة في الإيذاء والإيحاش ، ونقصان عن القدر الواجب ، ويدخل فيه الحكايات التي يذكرها الرجل حتى لا يزيد فيها ولا ينقص عنها ، ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس ، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان ، ويدخل فيه حكم الحاكم بالقول ، ثم إنه تعالى بين أنه يجب أن يسوي فيه بين القريب والبعيد ، لأنه لما كان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد ."[2]

إن هذه الوصية الربانية لتعد منهاجا قويما للأمة في كل تصرفاتها على مستوى الفرد والجماعة وعلى مستوى الراعي والرعية

في كل الأحوال والأوقات ، في المنشط والمكره ، في الرضا والغضب ، مع القريب والبعيد ، فلا سبيل إلا العدل ، يقول سبحانه :

"إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"[3]

---

١) الصحاح في اللغة ٤٥١/١ – باب عدل .

٢) التفسير الكبير – سورة الأنعام .

٣) سورة النحل الآية : ٩٠ .

ويقول سبحانه "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا"[1]

وحذر سبحانه من اتباع الهوى أولى الأمر خاصة والناس عامة ، فقال سبحانه

"يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ "[2]

وقد وضح نبينا صلى الله عليه وسلم خطورة الجور ومغبته فقال :

"مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ "[3]

وإن الدنيا كلها لتقف خاشعة لجلال هذه الوصية من رب البرية وهو ينهى عن الاعتداء ومجاوزة الحد حتى مع الكافرين الذين لا يقرون بألوهيته عز شانه :

فقال :

" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "[4]

وقال أيضا :

"وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "[1]

---

١) سورة النساء الآية : ١٣٥ .

٢) سورة ص الآية : ٢٦ .

٣) مسند أحمد – باب مسند أبي هريرة – رضي الله عنه – ٢٤٧/١٩ رقم ٩٢٠٤ . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٨٤/١

٤) سورة البقرة الآية : ١٩٠ .

وقال أيضا :

"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون" (٢)

يقول صاحب الظلال "لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام ، على الاعتداء . وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم . فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل . . وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق . فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء . فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين!

والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة . فيقدم له بما يعين عليه :

{ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله . . . }

ويعقب عليه بما يعين عليه أيضاً :

{ واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون } .

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله . حين تقوم لله ، متجردة عن كل ما عداه . وحين تستشعر تقواه وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور .

---

١) سورة المائدة الآية : ٢ .

٢) سورة المائدة الآية : ٨ .

وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق ، ويثبتها عليه . وما غير القيام لله ، والتعامل معه مباشرة ، والتجرد من كل اعتبار آخر ، يملك أن يستوي بهذه النفس على هذا المرتقى .

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين، كما يكفله لهم هذا الدين؛ حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر؛ وأن يتعاملوا معه ، متجردين عن كل اعتبار .

وبهذه المقوّمات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير؛ الذي يتكفل نظامه للناس جميعاً – معتنقيه وغير معتنقيه – أن يتمتعوا في ظله بالعدل؛ وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه ، يتعاملون فيها مع ربهم ، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن . .

وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية . مهما يكن فيها من مشقة وجهاد .

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة؛ وأدت تكاليفها هذه؛ يوم استقامت على الإسلام . ولم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا ، ولا مجرد مثل عليا ، ولكنها كانت واقعاً من الواقع في حياتها اليومية ، واقعاً لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد ، ولم تعرفه في هذا المستوى إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة . . والأمثلة التي وعاها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة . تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية ، قد استحالت في حياة هذه الأمة منهجاً في عالم الواقع يؤدى ببساطة ، ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة . . إنها لم تكن مثلاً عليا خيالية ، ولا نماذج كذلك فردية . إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن هناك طريقاً آخر سواه .

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها – بما فيها جاهلية العصور الحديثة – ندرك المدى المتطاول بين منهج يصنعه الله للبشر ، ومناهج يصنعها الناس للناس . ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة .

إن الناس قد يعرفون المبادئ؛ ويهتفون بها . . ولكن هذا شيء ، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر . . وهذه المبادئ التي يهتف بها الناس للناس طبيعي ، ألا تتحقق في عالم الواقع . . فليس المهم أن يُدعى الناس إلى المبادئ؛ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها . . .المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة . . المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر . . المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدحهم لتحقيق هذه المبادئ . .

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادئ التي تدعو إليها ، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله ، فما يقوله فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر؟ وماذا يملك للناس حين يعودون إليه بكدحهم وكدهم في تحقيق هذه المبادئ؟

يهتف ألف هاتف بالعدل . وبالتطهر . وبالتحرر . وبالتسامي . وبالسماحة . وبالحب . وبالتضحية . وبالإيثار . . . ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس؛ ولا يفرض نفسه على القلوب . لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان!

ليس المهم هو الكلام . . ولكن المهم من وراء هذا الكلام!

ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادئ والمثل والشعارات – مجردة من سلطان الله – ولكن ما أثرها؟ إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم . تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور . فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس . فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة ، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر!

ثم إن قيمة هذه « الوصايا » في الدين ، أنها تتكامل مع « الإجراءات » لتكييف الحياة . فهو لا يلقيها مجردة في الهواء . . فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا؛ وإلى مجرد شعائر؛ فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان . .

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين؛ وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه . ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات! . . وهذا هو « الدين » في المفهوم الإسلامي دون سواه . . الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة .

وحين تحقق « الدين » بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة؛ والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة؛ كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء .

وحين تحول « الدين » إلى وصايا على المنابر؛ وإلى شعائر في المساجد؛ وتخلى عن نظام الحياة . . لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة!"[1]

ومن أبرز أمثلة العدل المطلق الذي لا يتأثر بأي مؤثر ، ولا يخضع لأي ضغط، هذه الحادثة التي وقعت بالمدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ،

لقد سجل القرآن هذه الحادثة وهى بين يهودي من أهل الكتاب وبين رجل ينتمي إلى الإسلام ، وقد حكم الله عز وجل في هذه القضية ، ليضع لنا الأساس الكبير للعدل المطلق حتى مع العدو الذي يكيد للإسلام

قال تعالى :

"إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا "[2]

---

١) في ظلال القرآن – سورة المائدة ٢/٣٢٥ –٣٢٦ .

٢) سورة النساء الآيات : ١٠٥ – ١٠٩ .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية وما بعدها أن رجلا سرق درعا من بيت جاره فلما خاف أن يفتضح أمره رمى بها في بيت يهودي ، ولما وجدت الدرع عند اليهودي أنكر التهمة وهو بريء منها فعلا ، وجاء بشهود من قومه ليثبت براءته ، وفى نفس الوقت جاء أهل السارق الحقيقي إلى الني صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يدافع عن صاحبه ، وظاهر الأمر يؤيده – فأطلعه الله على حقيقة هذا الأمر ، وتدبير المدبرين ، وتبرئة ساحة اليهودي، والعجيب أن اليهود في هذه الفترة بالذات كانوا يعيثون في الأرض فسادا ، يؤلبون الأعراب والقبائل في جزيرة العرب على الإسلام وأهله ، لكن العدالة المطلقة التي جاء بها الإسلام ، ورحمة الله عز وجل بالعالمين ، اقتضت إيراد اثنتي عشرة آية في هذه الحادثة الفردية ، لتكون نموذجا لكل قضية يمكن أن يقف في طريق العدالة ، فيها العداء القائم واختلاف العقيدة ، وتكاتف بعض الناس بدافع القبيلة أو النسب أو الجنس على إخفاء الحقيقة ، وهكذا برأ الحق جل وعلا ساحة اليهودي المظلوم ، وأنزل فى شأنه قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، فهل بعد هذا من عدل تنسمته البشرية إلا من خلال الإسلام و على يد المسلمين ؟ [١]

ومن الأمثلة العملية علي العدل المطلق :

أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة يقسم ثمار أهل خيبر وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : " لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على العدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض [٢]

---

١) تفسير الكشاف ، والألوسى ، وأسباب النزول – آيات سورة النساء .

٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ٣٧٨/٣ ، والسيرة لابن هشام .

– قال أهل سمرقند لعاملهم سليمان بن أبى السري : إن قتيبة ظلمنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا ليذهب منا وفد إلى أمير المؤمنين ، وهو يومئذ عمر بن عبد العزيز فإن كان لنا حق أعطيناه ، فأذن لهم فتوجهوا إلى الخليفة فلما علم ظلامتهم أرسل إلى سليمان يقول له :

" إن أهل سمرقند قد شكوا إلى ظلما أصابهم فإذا أتاك كتابي هذا فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا "[١]

وجاء فى كتاب ماذا خسر العالم ف انحطاط المسلمين :

" وما يروى لنا الشيوخ :أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين في إحدى القرى الهندية عل أرض – فادعى الهنادك أنها معبد لهم وادعى المسلمون أنها لهم مسجد وتحاكموا إلى حاكم البلد وكان إنجليزيا فسأل الحاكم بعد أن سمع أدلة الفريقين – هل يوجد في البلد مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه ؟

قالوا نعم فلان وسموا شيخا من علماء المسلمين وصالحيهم فأرسل إليه الحاكم وطلب منه الحضور إلى المحكمة فلما حضر وسأله عن رأيه فى القضية قال : الحق مع الهنادك في هذه القضية والأرض لهم " [٢] (٢)

لقد خسر المسلمون هنا قطعة أرض ولكنهم كسبوا إقامة قضية العدل وكسبوا قلوب الهنادك الذين هدى الله بعضهم في هذا الموقف وشرح صدره للإسلام كما تقول الرواية .. إن رعاية المسلم لهذا الحق أكبر من الوطن أو الجنس أو القوم وضمير المسلم الصادق يعتبر قضية العدل من لب هذا الدين والمجتمع الإسلامي يقوم على عقيدة وفكرة تؤثر الحق على كل شيء

ومن العدل الذي أتمنى ألا يغيب عن أذهان الناس اليوم فى ظل الهجمة الشرسة على الإسلام ونبيه وكتابه العدل في إصدار الأحكام ،

---

١) انظر السلام في الإسلام ص ١٤٣

٢) ماذا خسر العالم للندوى ص ٢٥٠ .

إن الأحكام عندنا نحن المسلمين لا تلقى جزافا وإنما بمعيار دقيق ألا ترى إلى القرآن وهو يتحدث عن أهل الكتاب فبالرغم من محاربتهم لله ولرسله جميعا إلا أن العدل في الحكم عليهم لا يغيب يقول الله تعالي :

" أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " (١)

نعم إن الطابع العام لليهود نقض العهود والمواثيق لكن ليس هذا على الجملة ، بل إن منهم من يفي بعهده ويقول سبحانه :

"وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا " (٢)

أرأيت كيف بدأ بذكر الشق الحسن منهم ؟! .. هذه هي عظمة الإسلام .

---

١) سورة البقرة الآية : ١٠٠ .

٢) سورة آل عمران الآية : ٧٥ .

المبحث التاسع

الوفاء بالعهد

الوصية التاسعة : " وبعهد الله أوفوا "

يقول الإمام الألوسى "أي ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أي عهد كان فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً أو ما عاهدتم الله تعالى عليه من أيمانكم ونذوركم . والجار والمجرور متعلق بما بعده ، وتقديمه للاعتناء بشأنه { ذلكم } أي ما فصل من التكاليف الجليلة { وصاكم بِهِ } أمركم به أمرا مؤكدا { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ما في تضاعيفه وتعملون بمقتضاه . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم { تَذَكَّرُونَ } بتخفيف الذال والباقون بالتشديد في كل القرآن وهما بمعنى واحد .

وختمت الآية الأولى بقوله سبحانه : { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الأنعام : ١٥١] وهذه بقوله تعالى : { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها فنهاهم سبحانه لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها . وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان؛ قاله القطب الرازي ، ثم قال فإن قلت إحسان الوالدين من قبيل الثاني أيضاً فكيف ذكر من الأول؟ قلت : أعظم النعم على الإنسان نعمة الله تعالى ويتلوها نعمة الوالدين لأنهما المؤثران في الظاهر ومنهما نعمة التربية والحفظ عن الهلاك في وقت الصغر فلما نهى عن الكفر بالله تعالى نهى بعده عن الكفران في نعمة الأبوين تنبيهاً على أن القوم لما لم يرتكبوا الكفران فبطريق الأولى أن لا يرتكبوا الكفر .

وقال الإمام : السبب في ختم كل آية بما ختمت «أن التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الأولى (أمور) ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف

الأربعة المذكورة في هذه الآية أمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال وهو التذكر» انتهى . ويمكن أن يقال : إن أكثر التكليفات الأول أُدِّي بصيغة النهي وهو في معنى المنع والمرء حريص على ما منع فناسب أن يعلل الإيصاء بذلك بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس وهذا بخلاف التكليفات الأُخر فإن أكثرها قد أُدِّي بصيغة الأمر وليس المنع فيه ظاهراً كما في النهي فيكون تأكيد الطلب والمبالغة فيه ليستمر عليه ويتذكر إذا نسي فليتدبر ."[1]

إن الوصية بالوفاء بعهد الله سبحانه في هذه الآية لها أشباه ونظائر في القرآن الكريم ومن ذلك قوله :" **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** "[2]

وقوله سبحانه " وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا "[3] (١)

"وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد . لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة في ضمير الفرد وفي حياة الجماعة . وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد في صور شتى في القرآن والحديث؛ سواء في ذلك عهد الله وعهد الناس . عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة . عهد الحاكم وعهد المحكوم . وبلغ الإسلام في واقعه التاريخي شأوا بعيدا في الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا في ظل الإسلام "[4]

وقد وصف الله قوما ذوى عقول نيرة وفطر مستقية بأوصاف عدة كانت فى طليعتها أنهم يوفون بعهد الله سبحانه قال عز شانه

١) تفسير الألوسى — سورة الأنعام ٧١/٦ .

٢) سورة النحل الآية : ٩١ .

٣) سورة الإسراء الآية : ٣٤ .

٤) في ظلال القرآن ٢٠/٥ تفسير الإسراء .

"**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ** "[1]

وإنك لتلمح أهمية الوفاء بالعهد في المقابلة المعقودة في سورة الرعد ، فمن قوم في الغرفات آمنون ، على الأرائك متكئون ، إلى غير ذلك من الحياة الطيبة التي تستشرفها النفوس وتهوى إليها الأفئدة ، إلى قوم حلت عليهم اللعنة ، وحاق بهم غضب الله وسخطه ، فكان مقامهم شر مقام ، ومقيلهم شر مقيل ، وأول ما يطالعك من صفات الأولين الأخيار الوفاء بالعهد

وأول ما يطالعك من صفات الآخرين الأشرار نقض العهد كما قال سبحانه "**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** "[2]

ثم أرأيت إلى أول صفات القوم الفاسقين الذين حق عليهم الضلال إنها صفة نقض العهد مع الله وما يتبع ذلك من آثار سيئة قال سبحانه "**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** "[3]

وجعل الله سبحانه الوفاء بالعهد من أعمال البر وقد جاءنا من قول نبينا : " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا "[4]

١) سورة الرعد الآيتان : ١٩– ٢٠ .

٢) سورة الرعد الآية : ٢٥ .

٣) سورة البقرة الآيتان : ٢٦– ٢٧ .

٤) البخاري في كتاب الأدب – باب قوله تعالي يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٤٥/١٩ رقم ٥٦٢٩ .

كما جاءنا من قول ربنا " إن الأبرار لفي نعيم " (١)

ويقول سبحانه "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"(٢)

يقول الفخر الرازي رحمه الله "المسألة الثانية : في المراد بهذا العهد قولان الأول : أن يكون المراد ما أخذه الله من العهود على عباده بقولهم ، وعلى ألسنة رسله إليهم بالقيام بحدوده ، والعمل بطاعته ، فقبل العباد ذلك من حيث آمنوا بالأنبياء والكتب ، وقد أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم نقضوا العهود والمواثيق وأمرهم بالوفاء بها فقال : { يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم } [البقرة : ٤٠] فكان المعنى في هذه الآية أن البر هو ما ذكر من الأعمال مع الوفاء بعهد الله ، لا كما نقض أهل الكتاب ميثاق الله وما وفوا بعهوده فجحدوا أنبياءه وقتلوهم وكذبوا بكتابه ." (٣) (٣)

وطالما أثنى الله سبحانه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفائهم بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم في نصرة الله ورسوله قال سبحانه

"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " (٤)

---

١) سورة الانفطارالآية :١٣ .

٢) سورة البقرة الآية : ١٧٧ .

٣) التفسير الكبير – ٥٦/٣ . تفسير سورة البقرة .

٤) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

وأنت بعد خبير بإسهاب القرآن في الكلام عن بني إسرائيل وذكر أوصافهم المرذولة يحذر ما صنعوا ويرهب من أعمالهم من يأتي بعدهم آبد الآبدين وقد كان نقض اليهود من أخص صفات اليهود قديما وحديثا فنقضوا العهود مع الله ومع أنبيائه ومع الناس

قال سبحانه "أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (١)

والتعبير القرآني " أوكلما " ينبئ بأن هذا الخلق المذموم كان وصفا لازما لليهود لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه ،

كما جعل الله سبحانه نقض العهود من سمات اليهود كذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم الصفة نفسها علامة من علامات المنافقين فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ "(٢)

ويكفى لقبح هذه الصفة أن يفتضح صاحبها يوم يقوم الناس لرب العالمين وعلى رؤوس الأشهاد فعن ابن عمر قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ " (٣)

وكما أن الإسلام قد رفع مرتبة العادل حتى يجعله يوم القيامة فى ظل الله سبحانه يوم لا ظل إلا ظله (١)

---

١) سورة البقرة الآية : ١٠٠ .

٢) البخاري في كتاب الإيمان – باب علامة المنافق ٥٩/١ رقم ٣٣ .

٣) مسلم في كتاب الجهاد والسير – باب تحريم الغدر ١٥٦/٩ رقم ٣٢٦٥ .

فى المقابل فإن الإمام الخائن فيما استرعاه الله وائتمنته الأمة يرفع له يوم القيامة لواء غدر وشهرة وفضيحة نكالا به فعن أبي سعيد الخدرى قال " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ "(٢)

وليت شعري من ذا الذي يقوى على محاربة الملك سبحانه فيكون الله هو خصمه؟

إنه هذا الذي اجترأ على عهد الله فنقضه فعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَالَ اللَّهُ ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ "(٣)

وقد ذيل الله سبحانه الوصايا الأربعة بقوله

" ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون "(٤)

يقول صاحب النكت والعيون :

"{ ذَالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ } فيه وجهان :

أحدهما : أنه راجع إلى الذين هادوا وما أوصاهم به في التوراة .

والثاني : أنه راجع إلى المسلمين وما وصاهم به في القرآن "(٥) (١)

ويقول الفخر الرازي : "فإن قيل : فما السبب في أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله:

---

١) البخاري في كتاب الحدود – باب فضل من ترك الفواحش ٧٤/٢١ رقم ٦٣٠٨ .

٢) مسلم في كتاب الجهاد والسير – باب تحريم الغدر ١٦٣/٩ رقم ٣٢٧٢ .

٣) البخاري في كتاب البيوع – باب إثم من باع حرا .. ٤٧١/٧ رقم ٢٠٧٥ .

٤) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢ .

٥) النكت والعيون ٤٥٦/١ .

{ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الأنعام : ١٥١] وخاتمة هذه الآية بقوله : { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} .

قلنا : لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جلية ، فوجب تعقلها وتفهمها وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة ، لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال ، فلهذا السبب قال : { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم { تَذَكَّرُونَ } بالتخفيف والباقون{ تذكرن } بتشديد الذال في كل القرآن وهما بمعنى واحد "(١).

وأما صاحب الظلال فيقول : "ثم يجيء التعقيب القرآني في موضعه بعد التكاليف :

{ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون } .

والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

. . . هذه القواعد الأساسية الواضحة التي تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع . . . هذه هي صراط الله المستقيم . . صراطه الذي ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل "(٢)

ومن ثم ينتقل السياق القران البديع من هذه الوصايا الجامعة إلى الوصية الخاتمة في تسلسل عجيب وثوب قشيب .

---

١) التفسير الكبير ٢٠/٧ .

٢) في ظلال القرآن ١٧٤/٣ .

المبحث العاشر

الأمر باتباع الصراط المستقيم

الوصية العاشرة " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (١)

هذه هي خاتمة الوصايا وهى تعنى الأمر بالتزام طريق الحق واجتناب ما عداه من طرائق ، لأن التشعب والتفرق مدعاة إلى التشرذم والضلال والضياع فى الدنيا والآخرة

أما في الدنيا فمحق البركة وذهاب الريح واجتراء الغير عليكم ممن هم دونكم كما قال سبحانه

" وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ " (٢)

وأما في الآخرة فالنكال والعذاب الشديد جزاء وفاقا على ما فرطتم فى وصية ربكم ، وطالما أوصى الله عباده بالتزام الصراط المستقيم ،

ولا يخفى عليك أن فاتحة الكتاب تحوى الدعاء بالثبات على هذا الصراط الذي يخالف منهج المغضوب عليهم والضالين

" اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ " (٣)

ويذكر الله عباده المؤمنين بين الفينة والأخرى بوحدهم فيقول

" إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ " (١)

---

١) سورة الأنعام الآية : ١٥٣ .

٢) سورة الأنفال الآية : ٤٦ .

٣) سورة الفاتحة الآيتان : ٦-٧

" وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ " (٢)

وقد أوصى الله سبحانه أولى العزم من الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه فقال

" شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ " (٣)

وجعل الله سبحانه التفرق في الدين دليل الإشراك به فقال

"وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ " (٤) وقرىء " من الذين فارقوا دينهم "

– إنه طريق واحد ولهذا عبر عنه ربنا بقوله " وأن هذا صراطي مستقيما " بينما الباطل طرقه متعددة متنوعة قال الله " ولا تتبعوا السبل "

الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة :

عن عبد الله بن مسعود قال "خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : " هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " ثم قرأ (إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) (٥)

"وقال رجل لابن مسعود ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جَوَادّ، وعن يساره جَوَادّ، وثم رجال يدعون من مر بهم. فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود:

---

١) سورة الأنبياء الآية : ٩٢ .

٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٢ .

٣) سورة الشورى الآية : ١٣ .

٤) سورة الروم الآيتان : ٣١-٣٢ .

٥) مسند أحمد – باب مسند عبد الله بن مسعود ٤٦٣/٨ رقم ٣٩٢٨ . وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح – باب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٦/١ رقم ١٦٦ .

{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } الآية (١)

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعند رأس الصراط داع يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجوا وفوق ذلك داع يدعو كلما هم عبد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه "

ثم فسره فأخبر : " أن الصراط هو الإسلام وأن الأبواب المفتحة محارم الله وأن الستور المرخاة حدود الله وأن الداعي على رأس الصراط هو القرآن وأن الداعي من فوقه واعظ الله في قلب كل مؤمن) (٢)

وقد أمر الله سبحانه الأمة جميعا أن تعتصم بمنهجه وحده دون سواه فقال " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا "(٣)

وقد جاءنا من كلام نبينا صلى الله عليه وسلم أن حبل الله هو القرآن الكريم الذى لا يضل من اعتصم به

ففي صحيح مسلم عن يزيد بن حيان قال انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ وَعُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ وَغَزَوْتَ مَعَهُ وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا حَدِّثْنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ

١) تفسير ابن كثير ٣٦٧/٣ .

٢) سنن الترمذي رقم ٢٧٨٦ وصححه الألباني في مشكاة المصابيح – باب الاعتصام بالكتاب والسنة ٤١/١ رقم ١٩١ .

٣) سورة آل عمران من الآية : ١٠٣ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَا ابْنَ أَخِي وَاللَّهِ لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَقَدُمَ عَهْدِي وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا وَمَا لَا فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ ثُمَّ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ قَالَ وَمَنْ هُمْ قَالَ هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَبَّاسٍ قَالَ كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ قَالَ نَعَمْ "(١)

والصراط المستقيم على أصح الأقوال هو القرآن الكريم

ففي سنن الترمذي عن الحارث قال " مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ قَالَ وَقَدْ فَعَلُوهَا قُلْتُ نَعَمْ قَالَ أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ فَقُلْتُ مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا

١) مسلم في كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل علي ١٣٤/١٢ رقم ٤٤٢٥

{ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ } (١)

مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ " (٢)

وقد أبان النبي صلى الله عليه وسلم أن العاصم من الزيغ والضلال إنما يكون فى الاعتصام بكتاب الله و سنته المطهرة فقال :

" وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ " (٣)

وأخرج الحاكم فى المستدرك عن الصحيحين عن أبي هريرة "رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض " (٤)

من أجل كل ما سبق جاءت خاتمة الوصايا آمرة باتباع الصراط المستقيم حفاظا على كيان الأمة في الدنيا من الشتات وأمانا من النار يوم الميقات

"وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "

---

١) سورة الجن الآية : ١ .

٢) سنن الترمذي – باب ما جاء في فضل القرآن ١٤٧/١٠ رقم ٢٨٣١ .

٣) مسلم في كتاب الحج – باب حجة النبى صلي الله عليه وسلم ٢٤٥/٦ رقم ٢١٣٧ .

٤) المستدرك علي الصحيحين – كتاب العلم – فأما حديث عبد الله بن نمير ٣٠٧/١ رقم ٢٩١

ولا يخفى عليك أن سبيل رسول الله هو عين سبيل الله تعالى فإضافة السبيل إلى الله تعالى مرة وإضافتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى لا حرج فيها لأنهما سبيل واحد

قال سبحانه " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (١)

يقول الإمام الألوسى " أي سبيل الله تعالى الذي لا اعوجاج فيه ولا حرج لما هو دين الإسلام ، وقيل : هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان ، وفيه تنبيه على أن صراطه عليه السلام عين سبيل الله تعالى ، وقد أخرج أحمد وجماعة عن ابن مسعود قال : خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده ثم قال : " هذا سبيل الله تعالى مستقيماً " ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : " وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه " ثم قرأ { وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه } الخ ، وإنما أضيف إليه صلى الله عليه وسلم أولاً لأن ذلك أدعى للاتباع إذ به يتضح كونه صراط الله عز وجل .

{ ذلكم } إشارة إلى اتباع السبيل وترك اتباع السبل

{ وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } عقاب الله تعالى بالمثابرة على فعل ما أمر به والاستمرار على الكف عما نهى عنه . قال أبو حيان : «ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار إذ من اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية .

وكرر سبحانه الوصية لمزيد التأكيد» ويا لها من وصية ما أعظم شأنها ، وأوضح برهانها . (١)

---

١) سورة يوسف الآية : ١٠٨ .

وفى قوله سبحانه "ولا تتبعوا السبل "

يقول صاحب النكت والعيون : فيه ثلاثة أوجه :

" **أحدها** : ما تقدم من الكتب المنزلة نسخها بالقرآن وهو محتمل " (٢)

قلت ويدل عل هذا الوجه ما جاء عن جابر بن عبد الله أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي " (٣)

" **الثاني** : ما تقدم من الأديان المتقدمة نسخها بالإسلام وهو محتمل " (٤)

قلت ويدل عل هذا الوجه قوله تعالى **"وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ "**(٥)

" **الثالث** : البدع والشبهات " (٦)

قلت ويدل على هذا الوجه ما جاء عن عائشة أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ "(٧)

---

١) تفسير الألوسي ٧٢/٦ .

٢) النكت والعيون ٤٥٦/١ .

٣) مسند أحمد – باب مسند جابر بن عبد الله ١٧٣/٣٠ رقم ١٤٦٢٣ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح – باب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٨/١ رقم ١٧٧ .

٤) النكت والعيون ٤٥٦/١ .

٥) سورة آل عمران الآية : ٨٥ .

٦) النكت والعيون ٤٥٦/١ .

٧) مسلم في كتاب الأقضية –باب نقض الأحكام الباطلة١١٩/٩ رقم ٣٢٤٣ .

قال صاحب التحرير والتنوير :

"والسُبُل : الطّرق ، ووقوعها هنا في مقابلة الصّراط المستقيم يدلّ على صفة محذوفة ، أي السّبل المتفرّقة غير المستقيمة ، وهي التي يسمّونها : بُنيات الطّريق ، وهي طرق تتشعّب من السبيل الجادّة ذاهبة ، يسلكها بعض المارّه فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حَيّ ، ولا يستطيع السّيرَ فيها إلاّ مَن عَقَلها واعتادها ،

فلذلك سبب عن النّهي قوله : { فتفرق بكم عن سبيله } ، أي فإنّها طرق متفرّقة فهي تجعل سالكها متفرّقاً عن السّبيل الجادّة ، وليس ذلك لأنّ السّبيل اسم للطّريق الضيقة غير الموصّلة ، فإنّ السّبيل يرادف الصّراط ألا ترى إلى قوله : { قل هذه سبيلي } [يوسف : ١٠٨] ، بل لأنّ المقابلة والإخبار عنها بالتّفرق دلّ على أنّ المراد سبُل خاصّة موصوفة بغير الاستقامة .

والباء في قوله : { بكم } للمصاحبة : أي فتتفرّق السّبل مصاحبة لكم ، أي تتفرّقون مع تفرّقها ، وهذه المصاحبة المجازية تجعل الباء بمنزلة همزة التّعدية كما قاله النّحاة ، في نحو : ذَهَبْتُ بزيد ، أنّه بمعنى أذهبته ، فيكون المعنى فتُفرّقكُم عن سبيله، أي لا تلاقون سبيلَه .

والضّمير المضاف إليه في : { سبيله } يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام ، فإذا كان ضمير المتكلّم في قوله : { صراطي } عائداً لله كان في ضمير { سبيله } التفاتاً عن سبيلي ." (١)

ويختم السياق بقوله سبحانه " ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون "

يقول الفخر الرازي رحمه الله " إنه تعالى لما بين في الآيتين المتقدمين ما وصى به أجمل في آخره إجمالاً يقتضي دخول ما تقدم فيه ، ودخول سائر الشريعة فيه

---

١) التحرير والتنوير ١٩٥/٥ .

فقال : { وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا } فدخل فيه كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من دين الإسلام وهو المنهج القويم والصراط المستقيم ، فاتبعوا جملته وتفصيله ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات . وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خط خطاً ، ثم قال : " هذا سبيل الرشد ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ، ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه؟ " ثم تلا هذه الآية : { وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه } وعن ابن عباس هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار .

ثم قال : { ذلكم وصاكم به } أي بالكتاب { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } المعاصي والضلالات .

المسألة الرابعة : هذه الآية تدل على أن كل ما كان حقاً فهو واحد ، ولا يلزم منه أن يقال : إن كل ما كان واحداً فهو حق ، فإذا كان الحق واحداً كان كل ما سواه باطلاً ، وما سوى الحق أشياء كثيرة ، فيجب الحكم بأن كل كثير باطل ، ولكن لا يلزم أن يكون كل باطل كثيراً [1]

والملاحظ انه ختم هذه الوصايا بالتقوى والتنبيه عليها إيقاظا للقلوب لأنها جماع كل فضيلة وهى وصية الله لنا ولمن قبلنا

"وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ " [2]

---

١) التفسير الكبير ٢١/٧ .

٢) سورة النساء الآية ١٣١ .

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام وصلى الله وسلم وبارك على خير الأنام

وبعد .

فقد يسر الله كتابة هذا البحث وقد كانت أوقات مباركة تلك التي قضيتها لتسطير كلماته ونسج عباراته حتى جاء عل هذه الصورة التي أرجو لها قبولا .

وقد خلصت من هذا البحث بنتائج أجملها فيما يلي :.

أولا :

إن القرآن الكريم جل من أنزله سيظل المعين الرائق والنبع الصافي ، إلى آبد الآبدين ، لكل من يريد أن ينهل منه ، ويستروح ظلاله ، ويتنسم عبقه وأريجه فهو لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد .

وخير جليس لا يمل حديثه.............وترداده يزداد فيه تجملا

ثانيا :

إن الوصايا العشر المذكورة في سورة الأنعام إنما تضع المجتمع فى طريقه الصحيح ، إذ تربطه بالله الأحد ، وتنظم علاقة الفرد بالأسرة ، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وتحافظ على الحقوق ، وتحرم الدماء إلا بالحق .

ثالثا :

إن قوة الأمة وعزها يتمثل في وحدة صفها وهذا لا يتأتى إلا بالاعتصام بالنورين الكتاب والسنة فهما الصراط المستقيم الذي لا يضل من سلكه وإنما مؤداه السعادة في الدارين الدنيا والآخرة .

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل

ثبت بأهم مراجع البحث :

كتب تفسير القرآن وعلومه

١- أسباب النزول للإمام الواحدي

٢- التحرير والتنوير لابن عاشور

٣- تفسير الألوسي

٤- تفسير ابن كثير

٥- التفسير الكبير للرازي

٦- في ظلال القرآن أ/ سيد قطب

٧- لباب النقول للسيوطي

كتب السنة وعلومها:

١- صحيح البخاري

٢- صحيح مسلم

٣- صحيح ابن حبان

٤- مسند أحمد

٥- سنن ابن ماجة

٦- سنن الترمذي

٧- سنن النسائي

٨- مشكاة المصابيح للألباني

٩- إرواء الغليل للألباني

١٠- غاية المرام للألباني

كتب اللغة :

١- جمهرة العرب

٢- الصحاح في اللغة

٣- مختار الصحاح

٤- العقد الفريد لابن عبد ربه

كتب أخرى :

١- أخلاق أهل القرآن لمحمد بن الحسين

٢- أعلام الموقعين لابن القيم

٣- الدعوة في العهد المدني د/ رءوف شلبي

٤- العقوبة للإمام محمد أبي زهرة

٥- إغاثة اللهفان لابن القيم

٦- السيرة النبوية لابن كثير